٥٧١
ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين

في هذه السنة، عاشر شوّال، كان المصاف بين سيف الدين غازي بن مودود وبين صلاح الدين يوسف بن أيوب بتلّ السلطان، على مرحلة من حلب، على طريق حماة، وانهزم سيف الدين.

وسبب ذلك أنه لما انهزم أخوه عزّ الدين مسعود من صلاح الدين في العام الماضي وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين صاحب سنجار، عاد [إلى] الموصل، وجمع عساكره(١)، وفرّق فيهم الأموال، واستنجد صاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين وغيرهما، فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدّتهم ستّة آلاف فارس، فسار إلى نَصيبين في ربيع الأوّل من هذه السنة، وأقام بها فأطال المقام حتى انقضى الشتاء وهو مقيم، فضجر العسكر ونفدت نفقاتهم، وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر لما يتوقّعونه، إن ظفروا، من طول المقام بالشام بعد هذه المدّة.

ثم سار إلى حلب، فنزل إليه سعد الدين كُمُشتَكين الخادم، مدبّر دولة الملك الصالح، ومعه عساكر حلب، وكان صلاح الدين في قلّة من العساكر لأنّه كان صالح الفرنج في المحرّم من هذه السنة، على ما نذكره إن شاء الله، وقد سيّر عساكره(٢) إلى مصر، فأرسل يستدعيها، فلو عاجلوه(٣) لبلغوا غرضهم منه، لكنّهم تريّثوا وتأخروا عنه، فجاءته عساكره، فسار من دمشق إلى ناحية حلب ليلقى سيف الدين، فالتقى العسكران بتلّ السلطان، وكان سيف الدين قد سبقه، فلما وصل صلاح [الدين] كان

---

(١) في الأوربية: «عساكر».
(٢) في الأوربية: «عساكر».
(٣) في الأوربية: «عالجوه».

وصوله العصر، وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا، فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة، فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم وهم على هذا الحال، فقال زلفندار: ما بنا هذه الحاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة، غداً بُكرة نأخذهم كلّهم؛ فترك القتال إلى الغد.

فلما أصبحوا اصطفوا للقتال، فجعل زلفندار، وهو المدبر للعسكر السيفيّ، أعلاهم في وهدة من الأرض، لا يراها إلا من هو بالقرب منها، فلما لم يرها الناس ظنّوا أن السلطان قد انهزم، فلم يثبتوا وانهزموا، ولم يلوِ أخٌ على أخيه، ولم يُقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد، ووصل سيف الدين إلى حلب، وترك بها أخاه عزّ الدين مسعوداً في جمع من العسكر، ولم يُقم هو، وعبر الفرات، وسار إلى الموصل، وهو لا يصدق أنه ينجو.

وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل، فاستشار وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز، في مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عَقْر الحُمَيْدية، فقال له مجاهد الدين: أرأيت إن ملكت الموصل عليك، أتقدر أن تمنع ببعض أبراج الفصيل؟ فقال: لا. فقال: بُرج في الفصيل خير من العقر؛ وما زال الملوك ينهزمون ويعاودون الحرب، واتفق هو والوزير على شدّ أزره، وتقوية قلبه، فثبت ثمّ أعرض عن زلفندار وعزله واستعمل مكانه على إمارة الجيوش مجاهد الدين قايماز، على ما نذكره إن شاء الله[1].

وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب «البرق الشاميّ»[2] في تاريخ الدولة الصلاحيّة أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس، ولم يكن كذلك، إنما كان على التحقيق يزيد على ستّة آلاف فارس أقلّ من خمسمائة، فإنني وقفتُ على

---

(١) النوادر السلطانية ٥١ ـ ٥٢، سنا البرق الشامي ١/ ٢٠١ ـ ٢٠٤، زبدة الحلب ٣/ ٢٦، مفرّج الكروب ٢/ ٣٩، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٣٣، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٦٤٩ ـ ٦٥٥، تاريخ الزمان ١٩٢، المغرب في حلى المغرب ١٤٦ ـ ١٤٤٧، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٧٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٨، العبر ٤/ ٢١٢، دول الإسلام ٢/ ٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧١ هـ) ص ٨، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٣، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧، السلوك ج ١ ق ١/ ٦١، شفاء القلوب ٨٨ ـ ٩١، تاريخ ابن سباط ١/ ١٤٦، تاريخ الأزمنة للدويهي ١٧٦.

(٢) فُقد قسم منه وفيه ما ينقله «ابن الأثير» هنا، وهو في سنا البرق الشامي ١/ ٢٠٠.

جريدة العرض، وترتيب العسكر للمصافّ ميمنة وميسرة وقلباً، وجاليشية، وغير ذلك، وكان المتولّي لذلك والكاتب له أخي مجد الدين أبا السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم، رحمه الله، وإنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه بأنّه هزم بستّة آلاف عشرين ألفاً، والحق أحقّ أن يُتّبع، ثمّ يا ليت شِعْري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون[1] ألف فارس؟

ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين

لما انهزم سيف الدين وعسكره ووصلوا إلى حلب عاد سيف الدين إلى الموصل كما ذكرناه، وترك بحلب أخاه عز الدين مسعوداً في طائفة من العسكر نجدة للملك الصالح، وأما صلاح الدين فإنه لما استولى على أثقال العسكر الموصلي هو وعسكره، وغنموها واتسعوا بها وقووا، سار إلى بُزاعة فحصرها، وقاتله من بالقلعة، ثم تسلّمها وجعل فيها من يحفظها، وسار إلى مدينة مَنْبج فحصرها آخر شوّال، وبها صاحبها قُطب الدين ينّال بن حسان المَنْبجيّ، وكان شديد العداوة لصلاح الدين والتحريض عليه، والإطماع فيه، والطعن فيه، فصلاح الدين حنقٌ عليه متهدّدٌ له، فأما المدينة فملكها، ولم تمتنع عليه، وبقي القلعة وبها صاحبها قد جمع إليها الرجال والسلاح والذخائر، فحصره صلاح الدين وضيّق عليه وزحف إلى القلعة، فوصل النقّابون إلى السور فنقبوها وملكوها عنوةً، وغنم العسكر الصلاحيّ كلّ ما فيها، وأخذ صاحبها ينّال أسيراً، فأخذ صلاح الدين كلّ ماله وأصبح فقيراً لا يملك نقيراً، ثم أطلقه صلاح الدين فسار إلى الموصل، فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرَّقّة.

ولمّا فرغ صلاح [الدين] من مَنبج سار إلى قلعة إعزاز[2] فنازلها ثالث ذي القعدة من السنة، وهي من أحصن القلاع وأمنعها، فنازلها وحصرها، وأحاط بها وضيّق على مَن فيها ونصب عليها المجانيق، وقُتل عليها كثير من العسكر؛ فبينما صلاح الدين يوماً في خيمة لبعض أمرائه يقال له جاولي، وهو مقدّم الطائفة الأسديّة، إذ وثب عليه باطنيّ فضربه بسكّين في رأسه فجرحه، فلولا أن المِغْفَر الزَّرَد كان تحت القَلَنْسُوَة لقتله، فأمسك صلاح الدين يد الباطنيّ بيده، إلا أنه لا يقدر على منعه من الضرب

(١) في الأوربية: «عشرين».

(٢) ويقال: «عزاز» بإسقاط الألف من أولها.

بالكليّة، إنما يضرب ضرباً ضعيفاً، فبقي الباطني يضربه في رقبته بالسكّين، وكان عليه كُزاغنْد[1] فكانت الضربات تقع في زيق[2] الكُزاغند فتقطعه، والزَّرَد يمنعها من الوصول إلى رقبته لبُعد أجله، فجاء أمير من أمرائه اسمه يازكش[3]، فأمسك السكّين بكفّه، فجرحه الباطنيّ، ولم يطلقها من يده إلى أن قُتل الباطنيّ، وجاء آخر من الإسماعيليّة فقُتل أيضاً، وثالث فقُتل، وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور لا يصدّق بنجاته، ثمّ اعتبر جُنده، فمَن أنكره أبعده، ومن عرفه أقرّه على خدمته، ولازم حصار إعزاز ثمانية وثلاثين يوماً، كلّ يوم أشدّ قتالاً مما قبله، وكثُرت النقوب فيها، فأذعن من بها، وسلّموا القلعة إليه، فتسلّمها حادي عشر ذي الحجة[4].

ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها

لما ملك صلاح الدين قلعة إعزاز رحل إلى حلب فنازلها منتصف ذي الحجّة وحصرها، وبها الملك الصالح ومن معه من العساكر، وقد قام العامّة في حفظ البلد القيام المَرْضِيّ، بحيث أنهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد، لأنه كان إذا تقدّم للقتال خسر هو وأصحابه، وكثر الجراح فيهم والقتل؛ وكانوا يخرجون ويقاتلونه ظاهر البلد، فترك القتال وأخلد للمطاولة.

وانقضت سنة إحدى وسبعين ودخلت سنة اثنتين وسبعين، وهو محاصرٌ لها، ثمّ تردّدت الرسل بينهم في الصلح في العشرين من المحرّم، فوقعت الإجابة إليه من الجانبين، لأن أهل حلب خافوا من طول الحصار، فإنّهم ربّما ضعُفوا[5]، وصلاح

---

(١) الكزاغند: الدرع.

(٢) الزيق: الحزام.

(٣) في (أ): «يارلج».

(٤) النوادر السلطانية ٥٢، سنا البرق الشامي ١/٢٠٩ ـ ٢١٦، زبدة الحلب ٣/٢٨ ـ ٣٠، مفرّج الكروب ٢/٤٥، الروضتين ج ١ ق ٢/٦٦٢، تاريخ مختصر الدول ٢١٦، تاريخ الزمان ١٩٢، المغرب في حلى المغرب ١٤٧، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/١١٧ (سنة ٥٧٢ هـ)، نهاية الأرب ٢٨/٣٨٠، المختصر في أخبار البشر ٣/٥٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧١ هـ) ص ٨، العبر ٤/٢١٢، دول الإسلام ٢/٨٥، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٦، مرآة الجنان ٣/٣٩٣، البداية والنهاية ١٢/٢٩٣، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٥٧، السلوك ج ١ ق ١/٦١ ـ ٦٢، شفاء القلوب ٩٢، تاريخ ابن سباط ١/١٤٦ ـ ١٤٧، شذرات الذهب ٤/٢٣٨.

(٥) زاد في (ب): «وعجزوا».

الدين رأى أنّه لا يقدر على الدُّنُوّ من البلد، ولا على قتال من به، فأجاب أيضاً، وتقرّرت القاعدة في الصلح للجميع، للملك الصالح، ولسيف الدين صاحب الموصل، ولصاحب الحصن، ولصاحب ماردين، وتحالفوا واستقرّت القاعدة أن يكونوا كلّهم عوناً على الناكث الغادر.

فلما انفصل الأمر وتمّ الصُّلح رحل صلاح الدين عن حلب بعد أن أعاد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح، فإنه أخرج [إلى] صلاح الدين أُخْتاً له صغيرة طفلة، فأكرمها صلاح الدين وحمل لها شيئاً كثيراً، وقال لها: ما تريدين؟ قالت: أريد قلعة إعزاز؛ وكانوا قد علّموها ذلك، فسلّمها إليهم، ورحل إلى بلد الإسماعيليّة[1].

ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها وإقامة غيره

في هذه السنة، في ذي الحجة، كان بمكة حرب شديدة بين أمير الحاجّ طاشتِكِين وبين الأمير مُكثر أمير مكّة، وكان الخليفة قد أمر أمير الحاجّ بعزل مُكثر وإقامة أخيه داود مقامه.

وسبب ذلك أنه كان قد بنى قلعة على جبل أبي قُبَيس، فلما سار الحاج عن عرفات لم يبيتوا بالمُزدلِفة، وإنما اجتازوا بها، فلم يرموا الجِمار، إنما بعضهم رمى بعضها وهو سائر، ونزلوا الأبطح فخرج إليهم ناس من أهل مكة فحاربوهم، وقُتل من الفريقين[2] جماعة، وصاح الناس: الغَزاة إلى مكة، فهجموا عليها، فهرب أمير مكة مُكثر، فصعد إلى القلعة التي بناها على جبل أبي قُبَيس فحصروه بها، ففارقها وسار عن مكّة، وولي أخوه داود الإمارة، ونهب كثير[3] من الحاج مكّة، وأخذوا من أموال

---

(١) النوادر السلطانية ٥٢، سنا البرق الشامي ١/٢٠٩ ـ ٢١٦، مفرّج الكروب ٢/٤٥، زبدة الحلب ٣/٢٨ ـ ٣٠، الروضتين ج ١ ق ٢/٦٦٢، تاريخ مختصر الدول ٢١٦، تاريخ الزمان ١٩٣، المغرب في حلى المغرب ١٤٧، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/١١٧ (حوادث ٥٧٢ هـ)، نهاية الأرب ٢٨/٣٨١، الدر المطلوب ٦٠، العبر ٤/٢١٢، دول الإسلام ٢/٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧١ هـ) ص ١٠، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٦، مرآة الجنان ٣/٣٩٣، البداية والنهاية ١٢/٢٩٣، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٥٧، السلوك ج ١ ق ١/٦١ ـ ٦٢، شفاء القلوب ٩٢، تاريخ ابن سباط ١/١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) في الأوربية: «الفارقين».

(٣) في الأوربية: «كثيراً».

التجّار المقيمين بها شيئاً كثيراً، وأحرقوا دُوراً كثيرةً.

ومن أعجب ما جرى فيها أن إنساناً زرّاقاً ضرب داراً بقارورةِ نفطٍ فأحرقها، وكانت لأيتام، فأحرقت ما فيها، ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكاناً آخر، فأتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها، فاحترق هو بها، فبقي ثلاثة أيام يعذَّب بالحريق[1] ثمّ مات[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في شهر رمضان، انكسفت الشمس جميعها، وأظلمت الأرض حتى بقي الوقت كأنّه ليل مظلم، وظهرت الكواكب، وكان ذلك ضَحْوة النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه، وكنتُ حينئذٍ صبيّاً بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخٍ لنا من العلماء أقرأ عليه الحساب، فلمّا رأيتُ ذلك خفتُ خوفاً شديداً، وتمسّكتُ به، فقوّى قلبي، وكان عالماً بالنجوم أيضاً، وقال لي: الآن ترى هذا جميعه، فانصرف سريعاً[3].

وفيها ولّى الخليفة المستضيء بأمر الله حجابة[4] الباب أبا طالب نصر بن عليّ الناقد، وكان يلقّب في صِغَره قُنْبُراً، فصاروا[5] يصيحون به ذلك إذا خرج، فأمر الخليفة أن يركب معه جماعة من الأتراك ويمنعوا[6] الناس من ذلك، فامتنعوا، فلما كان قبل العيد خلع عليه ليركب في الموكب، فاشترى جماعة من أهل بغداد من القنابر شيئاً كثيراً، وعزموا على إرسالها في الموكب إذا رأوا ابن الناقد، فأُنهي ذلك إلى الخليفة، وقيل له يصير الموكب ضحكة، فعزله وولّى ابن المعوّج[7].

وفيها، في ذي الحجّة، يوم العيد، وقعت فتنة ببغداد بين العامة وبعض الأتراك

---

(١) في الباريسية: «بالخل يق».

(٢) المنتظم ١٠/ ٢٦٠ (١٨/ ٢٢٤) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧١ هـ) ص ٧، شفاء الغرام (بتحقيقنا) ٢/ ٣٦٧.

(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧١ هـ) ص ١٠، المنتظم ١٨/ ٢٢١.

(٤) في الأوربية: «حجبة».

(٥) في الأوربية: «فصار».

(٦) في الأوربية: «ويمنعون».

(٧) المنتظم ١٨/ ٢١٨ و٢٢١.

بسبب أخذ جمال النَّحر[1]، فقُتل بينهم جماعة ونُهب شيء كثير من الأموال، ففرّق الخليفة أموالاً جليلةً فيمن نُهب ماله.

وفيها زُلزلت بلاد العجم من حدّ العراق إلى ما وراء الرَّيّ، وهلك فيها خلق كثير، وتهدّمت دُور كثيرة، وأكثر ذلك كان بالرَّيّ وقَزوين[2].

وفيها، في ربيع الآخر، استوزر سيف الدين غازي، صاحب الموصل، جلال الدين أبا الحسن عليّ بن جمال الدين محمد بن عليّ، وكان أبوه جمال الدين وزير البيت الأتابكيّ، وقد تقدّمت أخباره، وهو المشهور بالجود والإفضال؛ ولما ولي جلال الدين الوزارة ظهرت منه كفاية عظيمة، ومعرفة تامّة بقوانين الوزارة، وله مكاتبات وعهود حسنة مدوّنة مشهورة، وكان جواداً فاضلاً خيّراً، عمره، لما ولي الوزارة، خمس وعشرون[3] سنة.

وفيها، في ذي الحجة، استناب سيف الدين أيضاً عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز، وفوّض إليه الأمور، وكان قبل ذلك [فوّض] إليه الأمر بمدينة إرْبِل وأعمالها، وكان، رحمه الله، من صالحي الأمراء وأرباب المعروف، بنى كثيراً من الجوامع والخانات في الطرق، والقناطر على الأنهار والرُّبُط وغير ذلك من أبواب البرّ، وكان دائم الصدقة، كثير الإحسان، عادل السيرة، رحمه الله.

وفيها قبض الخليفة على عماد الدين صندل المقتفويّ، أستاذ الدار، ورتب مكانه أبا الفضل هبة الله بن عليّ بن هبة الله بن الصاحب[4].

وفيها، في رمضان، قدِم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الذي ملك اليمن إلى دمشق لما سمع أن أخاه صلاح الدين ملكها، حنّ إلى الوطن والأتراب، ففارق اليمن وسار إلى الشام[5]، وأرسل من الطريق إلى أخيه يعلمه بوصوله. وكتب في الكتاب شِعراً من قول ابن المنجّم المصريّ:

---

(١) في المنتظم ١٠/ ٢٦٠ (١٨/ ٢٢٣): «جمال البحريني».

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٢ هـ) ص ١٣، المنتظم ١٠/ ٢٦٩ (١٨/ ٢٣١).

(٣) في الأوربية: «خمساً وعشرين».

(٤) المنتظم ١٠/ ٢٥٦ (١٨/ ٢١٨)، مرآة الزمان ج ٨ ق ٢/ ٣٣١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧١ هـ) ص ٥، النجوم الزاهرة ٦/ ٧٦.

(٥) سنا البرق الشامي ١/ ٢٠٦، النوادر السلطانية ٥٢.

وإلى صَلاحِ الدين أشكُو أنّني | من بَعدِه مُضْنَى الجوانح مُولَعُ
جزعاً لبُعدِ الدّار منهُ ولم أكُنْ | لَوْلا هَواهُ لبُعدِ دارٍ أجْزَعُ
فلأركَبَنّ إليهِ مَتْنَ عَزائِمي | ويَخُبُّ بي ركبُ الغرامِ ويُوسِعُ
ولأقطعَنّ من النّهارِ هَواجِرا | قَلْبُ النّهارِ بحرّها يَتَقطّعُ
ولأسرِيَنّ اللّيلَ لا يَسْرِي به | طَيفُ الخَيالِ ولاَ البُرُوقُ اللُّمّعُ
وأُقَدّمَنّ إليهِ قَلبي مُخْبِراً | أنّي بجِسْمي مِنْ قَريبٍ أتْبَعُ
حَتّى أُشاهِدَ منْهُ أسعَدَ طَلعَةٍ | من أُفقِها صُبحُ السّعادَةِ يَطلُعُ

وفي هذه السنة، في المحرّم، برز صلاح الدين من دمشق، وقد عظُم شأنه بما ملكه من بلاد الشام، وبكسره عسكر الموصل، فخافه الفرنج وغيرهم، وعزم على دخول بلدهم ونهبه والإغارة عليه، فأرسلوا إليه يطلبون الهدنة معه، فأجابهم إليها وصالحهم، فأمر العساكر المصريّة بالعود إلى مصر والاستراحة إلى أن يعاود طلبهم، وشرط عليهم أنه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخّرون، فساروا إليها وأقاموا بها إلى أن استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ما نذكره.

[الوفيات]

وفيها مات أبو الحسن عليُّ بن عساكر البطائحيّ المقرىء، وكان قد سمع الحديث الكثير ورواه، وكان نحوياً جيّداً.

وفي ذي الحجة منها تُوفي أبو سعد محمد بن سعيد بن محمد بن الرزّاز، سمع الحديث ورواه، وله شِعرٌ جيّد، فمن ذلك أنه كتب إليه بعض أصدقائه مكاتبة وضمّنها شعراً، فأجابه:

يا مَن أياديهِ تُغني مَن يُعَدّدُها | وَليسَ يُحصي مَداها من لها يَصِفُ
عجزْتُ عن شكْرِ ما أوليتَ من كرَمٍ | وصِرْتُ عبداً ولي في ذلكَ الشّرَفُ
أهدَيتَ مَنظُومَ شِعْرٍ كلّهُ دُرَرٌ | فكُلُّ ناظِمِ عِقْدٍ دُونَهُ يَقِفُ
إذا أتَيتَ ببَيْتٍ مِنْهُ كان لَنَا | قَصراً ودرُّ المعاني فَوْقَهُ شُرَفُ
وإنْ أتَيتُ أنا بَيْتاً يُناقِضُهُ | أتَيتُ لكِنْ ببَيْتٍ سَقَفُهُ يَكِفُ
ما كُنْتُ منْهُ وَلا مِنْ أهلِهِ أبَداً | وإنّما حينَ أدْنُو منهُ أقتَطِفُ

وقيل كانت وفاته سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وهو الصحيح.

٥٧٢
ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

ذكر نهب صلاح الدين بلد الإسماعيليّة

لما رحل صلاح الدين من حلب، على ما ذكرناه قبلُ، قصد بلاد الإسماعيليّة في المحرّم ليقاتلهم بما فعلوه به من الوثوب عليه وإرادة قتله، فنهب بلدهم وخرّبه وأحرقه، وحصر قلعة مِصياف[1]، وهي أعظم حصونهم، وأحصن قلاعهم، فنصب عليها المجانيق، وضيّق على مَن بها، ولم يزل كذلك؛ فأرسل سِنانٌ مقدّم الإسماعيليّة إلى شهاب الدين الحارميّ، صاحب حماة وهو خال صلاح الدين، يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم، ويقول له: إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين وأمرائه؛ فحضر شهاب عند صلاح الدين وشفع فيهم وسأل الصفح عنهم، فأجابه إلى ذلك، وصالحهم، ورحل عنهم[2].

وكان عسكره قد ملّوا من طول البيكار، وقد امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل، ونهب بلد الإسماعيليّة، فطلبوا العود إلى بلادهم للاستراحة، فأذِن لهم، وسار هو إلى مصر مع عسكرها، لأنه كان قد طال عهده عنها، ولم يمكنه المُضِيّ إليها فيما تقدم خوفاً على بلاد الشام؛ فلما انهزم سيف الدين، وحصر هو حلب، وملك بلادها، واصطلحوا، أمِن على البلاد، فسار إلى مصر، فلمّا وصل إليها أمر

---

(١) في طبعة صادر ٤٣٦/١١ «مصبياب»، وفي الأوربية «مصيات»، والصحيح ما أثبتناه وهي مدينة معروفة الآن بجبال العلويين في الجمهورية العربية السورية.

(٢) سنا البرق الشامي ٢١٧/١، مفرّج الكروب ٤٨/٢، زبدة الحلب ٣/ ٣٠ ـ ٣١، الروضتين ج ١ ق ٦٦٨/٢، المختصر في أخبار البشر ٥٩/٣، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٨١، دول الإسلام ٢/ ٨٥ ـ ٨٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٢ هـ) ص ١٤، العبر ٤/ ٢١٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٧، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٧٥، شفاء القلوب ٩٢، تاريخ ابن سباط ١٤٧/١، تاريخ الأزمنة ١٧٦ ـ ١٧٧.

ببناء سور على مصر في الشّعاري والغِياض والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطّم، دوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشميّ[١]، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين[٢].

ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين

كان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدّم صاحب بعلبك، فأتاه خبرٌ أن جمعاً من الفرنج قد قصدوا البقاع من أعمال بعلبك، وأغاروا عليها، فسار إليهم، وكمن لهم في الشّعاري والغياض، وأوقع بهم، وقتل فيهم وأكثر، وأسر نحو مائتي رجل منهم وسيّرهم إلى صلاح الدين.

وكان شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين، وهو الذي ملك اليمن، قد وصل إلى دمشق، كما ذكرناه، وهو فيها، فسمع أن طائفة من الفرنج قد خرجوا من بلادهم إلى أعمال دمشق، فسار إليهم ولقيهم [عند عين الجرّ[٣] في تلك المروج، فلم يثبت لهم، وانهزم عنهم، فظفروا][٤] بجمع من أصحابه، فأسروهم[٥]، منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار، وهو من أعيان الجُند الدمشقيّين، واجترأ الفرنج بعدها، وانبسطوا في تلك الولاية، وجبروا الكسر الذي ناله منهم ابن المقدّم[٦].

ذكر عصيان صاحب شَهرَزُور على سيف الدين وعوده إلى طاعته

في هذه السنة عصى شهاب الدين محمد بن بزان، صاحب شَهْرَزُور، على سيف الدين غازي وكان في طاعته وتحت حُكمه.

وكان سبب ذلك أنّ مجاهد الدين قايماز كان متولّياً مدينة إربِل، وكان بينه وبين

---

(١) هكذا هنا والمختصر في أخبار البشر ٣/٥٩، أما في تاريخ الإسلام ١٥ «بالقاسمي»، وفي السلوك ج ١ ق ١/٦٣، وسنا البرق الشامي ١/٢٣٩ ـ ٢٤٠، وأخبار الدول ٢/١٨٢ ـ ١٨٣، وبدائع الزهور ج ١ ق ١/٢٤٢ «بذراع العمل».

(٢) مرآة الزمان ج ٨ ق ١/٣٣٨، مفرّج الكروب ٢/٥١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٢ هـ) ص ١٤ ـ ١٥، المواعظ والاعتبار ٢/٢٠٤ ـ ٢٠٩، تاريخ ابن سباط ١/١٤٨.

(٣) هي بلدة عنجر الحالية في البقاع.

(٤) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٥) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «أسروهم».

(٦) سنا البرق الشامي ١/٢١٩، مفرّج الكروب ٢/٤٨ ـ ٤٩.

ابن بزان عداوة محكمة، فلمّا استتاب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل خاف ابن بزان أن يناله منه أذًى، فأظهر الامتناع من النزول إلى الخدمة، فأرسل إليه جلال الدين وزير سيف الدين كتاباً يأمره بمعاودة الطاعة، ويحذّره عاقبة المخالفة، وهو من أحسن الكتب وأبلغها في هذا المعنى، ولولا خوف التطويل لذكرته، فليُطلب من مكاتباته؛ فلما وصل إليه الكتاب والرسول بادر إلى حضور الخدمة بالموصل وزال الخُلْف.

ذكر فرج بعد شدّة يتعلّق بالتاريخ

بالقرب من جزيرة ابن عمر حصن منيع من أمنع المعاقل اسمه فَنَك، وهو على رأس جبلٍ عالٍ، وهو للأكراد البَشنوية، له بأيديهم نحو ثلاثمائة سنة؛ وكان صاحبه هذه السنة أمير منهم اسمه إبراهيم، وله أخ اسمه عيسى، قد خرج منه، وهو لا يزال يسعى في أخذه من أخيه إبراهيم، فأطاعه بعض بطانة إبراهيم، وفتح باب السرّ ليلاً، وأصعد منه إلى رأس القلعة نيّفاً وعشرين رجلاً من أصحاب عيسى، فقبضوا على إبراهيم ومَن عنده، ولم يكن عنده إلا نفر من خواصّه، وهذه قُلّة على صخرة كبيرة مرتفعة عن سائر القلعة ارتفاعاً[1] كثيراً؛ وبها يسكن الأمير وأهله وخواصّه، وباقي الجُند في القلعة تحت القلّة، فلمّا قبضوا إبراهيم جعلوه في خزانة، وضربه بعضهم بسيف في يده على عاتقه، فلم يصنع شيئاً، فلمّا جُعل في الخزانة وُكّل به رجلان[2]، وصعِد الباقون إلى سطح القلّة، ولا يشكّون أنّ القلعة لهم لا مانع عنها.

ووصل من الغد بُكرةً الأمير عيسى ليتسلّم القلعة، وبينهما دجلة، وكانت امرأة الأمير إبراهيم في خزانة أخرى، وفيها شُبّاك حديد ثقيل يشرف على القلعة، فجذبته بيدها فانقلع، وجُند زوجها في القلعة لا يقدرون على شيء، فلمّا قلعت الشّبّاك أرادت أن تُدْلي حبلاً ترفع به الرجال إليها، فلم يكن عندها غيرُ ثياب خام، فوصّلت بعضها ببعض ودلّتها إلى القلعة، وشدّت[3] طرفيها عندها في عود فأصعدت إليها عشرة رجال، ولم يكن يراهم الذين على السطح.

ورأى الأمير عيسى، وهو على جانب دجلة، الرجال يصعدون، فصاح هو ومَن

---

(١) في الأوربية: «ارتفاماً».

(٢) في الأوربية: «رجلين».

(٣) في الأوربية: «وشدّدت».

معه إلى أولئك الذين على السطح ليحذروا، وكانوا كلّما صاحوا صاح أهل القلعة لتختلف الأصوات فلا يفهم الذين على السطح، فينزلون ويمنعون من ذلك، فلمّا اجتمع عندها عشرة رجال أرسلت مع خادم عندها إلى زوجها قدح شراب وأمرته أن يقرب منه كأنّه يسقيه الشراب ويُعرّفه الحال، ففعل ذلك، وجلس بين يديه ليسقيه، وعرّفه الحال، فقال: ازدادوا من الرجال؛ فأصعدت عشرين رجلاً، وخرجوا من عندها، فمدّ إبراهيم يده إلى الرجلين الموكّلَين به، فأخذ شعورهما، وأمر الخادم بقتلهما، وكان عنده، فقتلهما بسلاحهما، فخرج واجتمع بأصحابه وأرادوا فتح القلعة ليصعد إليه أصحابه من القلعة، فلم يجد المفاتيح، وكانت مع أولئك الرجال الذين على السطح، فاضطرّوا إلى الصعود إلى سطح القلّة ليأخذوا أصحاب عيسى، فعلموا الحال، فجاؤوا ووقفوا على رأس الممرق فلم يقدر أحدٌ [أن] يصعد، فأخذ بعض أصحاب إبراهيم تُرساً وجعله على رأسه، وحصل في الدرجة، وصعد وقاتل القوم على رأس الممرق، حتى صعد أصحابه فقتلوا الجماعة وبقي منهم رجل ألقى نفسه من السطح، فنزل إلى أسفل الجبل فتقطّع. فلما رأى عيسى ما حلّ بأصحابه عاد خائباً مما أمّله، واستقرّ الأمير إبراهيم في قلعته على حاله.

ذكر نهب البَنْدَنِيجَيْن

في هذه السنة وصل الملك الذي بخوزستان عند شُملة، وهو ابن ملكشاه بن محمود، إلى البَنْدَنِيجَين، فخرّبها ونهبها وفتك في الناس، وسبَى حريمهم، وفعل كلّ قبيح.

ووصل الخبر إلى بغداد فخرج الوزير عضُد الدين وعرض العسكر، ووصل عسكر الحِلّة وواسط مع طاشتَكين أمير الحاجّ وغَرغَلي[1]، وساروا نحو العدوّ، فلما سمع بوصولهم فارق مكانه وعاد، وكان معه من التركمان جمعٌ كثير، فنهبهم عسكر بغداد، ورجعوا من غير أمر بالعَود، فأنكر عليهم ذلك، وأُمروا بالعود إلى مواقفهم، فعادوا لأوائل شهر رمضان، وقد رجع الملك فنهب من البَنْدَنِيجَين ما كان سلم من النهب الأول، ووقعت بينهم وبين الملك وقعة، ثمّ افترقوا، فمضى الملك وفارق ولاية العراق وعاد عسكر بغداد.

---

(١) في الباريسية «غراغلي».

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، أقيمت الجمعة في الجامع الذي بناه فخر الدولة بن المطّلب بقصر المأمون غربيّ بغداد.

وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الشافعيّ، رضي الله عنه، بمصر، وعمل بالقاهرة بيمارستان، ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة[1].

وفيها رأيت بالموصل خروفين ببطن واحد ورأسَين ورَقبتَين وظهرين وثماني قوائم كأنّهما خروفان ببطن واحد، وجه أحدهما إلى وجه الآخر، وهذا من العجائب.

وفيها انقضّ كوكب أضاءت له الأرض إضاءةً كثيرة، وسمُع له صوت عظيم، وبقي أثره في السماء مقدار ساعة وذهب.

[الوفيات]

وفيها توفي تاج الدين أبو عليّ الحسن بن عبد الله بن المظفّر بن رئيس الرؤساء أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة.

وفيها، في المحرم، توفي القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوريّ، قاضي دمشق وجميع الشام، وإليه الوقوف بها والديوان، وكان جواداً فاضلاً رئيساً ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول، رحمه الله ورضي عنه.

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٥٩/٣، سنا البرق الشامي ٢٤١/١، الروضتين ج ١ ق ٦٨٨/٢، البداية والنهاية ٢٩٦/١٢، تاريخ ابن الوردي ٨٧/٢، النجوم الزاهرة ١٠١/٤ حاشية ٣، تاريخ ابن سباط ١٤٨/١، بدائع الزهور ج ١ ق ٢٤٣/١.

٥٧٣
ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة

في هذه السنة، أواخر جُمادى الأولى، سار صلاح الدين يوسف بن أيّوب من مصر إلى ساحل الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج، وجمع معه عساكر كثيرة وجنوداً غزيرة، فلم يزالوا يجدّون السير حتى وصلوا إلى عَسقَلان في الرابع والعشرين منه، فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرّقوا في تلك الأعمال مُغيرين. فلما رأوا أنّ الفرنج لـم يظهـر لهـم عسكـر ولا اجتمـع لهـم مـن يحمـي البـلاد مـن المسلميـن، طمعـوا، وانبسطوا، وساروا في الأرض آمنين مطمئنين، ووصل صلاح الدين إلى الرملة، عازماً على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره، فوصل إلى نهر، فازدحم الناس للعبور، فلم يرعهم إلا والفرنج قد أشرفت عليهم بأطلابها وأبطالها، وكان مع صلاح الدين بعض العسكر، لأن أكثرهم تفرّقوا في طلب الغنيمة، فلما رآهم وقف لهم فيمن معه، وتقدّم بين يديه تقيّ الدين عمر بن محمد ابن أخي صلاح الدين، فباشر القتال بنفسه بين يدي عمّه، فقُتل من أصحابه جماعة، وكذلك من الفرنج، وكان لتقي الدين ولد اسمه أحمد، وهو من أحسن الشباب أوّل ما تكاملت لحيته، فأمره[1] أبوه بالحملة عليهم، فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالماً قد أثّر فيهم أثراً كثيراً، فأمره بالعودة إليهم ثانية، فحمل عليهم فقُتل شهيداً، ومضى حميداً، رحمه الله ورضي عنه.

وكان أشدّ الناس قتالاً ذلك اليوم الفقيه عيسى، رحمه الله، وتمّت الهزيمة على المسلمين، وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل إليه، فقُتل الفرنجيّ بين يديه، وتكاثر الفرنج عليه، فمضى منهزماً، يسير قليلاً ويقف ليلحقه العسكر إلى أن دخل اللّيل، فسلك البريّة إلى أن مضى في نفرٍ يسير إلى مصر، ولقوا

---

(١) في الأوربية: «فأمر».

في طريقهم مشقّة شديدة، وقلّ عليهم القوت والماء، وهلك كثير من دوابّ العسكر جوعاً وعطشاً وسرعة سير.

وأما العسكر الذي كانوا دخلوا بلاد الفرنج في الغارة، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيلٍ وأسير. وكان من جملة من أُسر الفقيه عيسى الهكّاريّ، وهو من أعيان الأسديّة، وكان جمع العلم والدين والشجاعة، وأُسر أيضاً أخوه الظهير، وكانا قد سارا منهزمين فضلا الطريق، فأُخِذا ومعهما جماعة من أصحابهما، وبقوا سنين في الأسر، فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستّين ألف دينار وجماعة كثيرة من الأسرى.

ووصل صلاح الدين إلى القاهرة نصف جُمادى الآخرة، ورأيتُ كتاباً كتبه صلاح الدين بخطّ يده إلى أخيه شمس الدولة تورانشاه وهو بدمشق، يذكر الوقعة، وفي أوّله:

ذكَرْتُكَ والخَطِّيُّ يخطرُ بَيْنَنا وقد نَهَلَتْ منّا المُثَقَّفَةُ السُّمرُ[1]

ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما أنجانا الله سبحانه منه إلاّ لأمر يريده سبحانه:

وما ثبتت إلاّ وفي نفسها أمرُ[2]

ذكر حصر الفرنج مدينة حماة

في هذه السنة، في جمادى الأولى، حصر الفرنج أيضاً مدينة حماة[3]. وسبب

---

(١) البيت لابن عطاء السندي. (انظر كتاب «الزهرة» لأبي بكر محمد بن سليمان الأصفهاني ص ٢٧٨).

(٢) النوادر السلطانية ٥٢ ـ ٥٣، سنا البرق الشامي ١/٢٥٢ ـ ٢٦٤، البرق الشامي ٣/٣١ ـ ٥٠، مفرّج الكروب ٢/٥٨ ـ ٦٣، الروضتين ج ١ ق ٦٩٩/١ ـ ٧٠٤، تاريخ الزمان ١٩٣ ـ ١٩٤، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/٣٤٢ ـ ٣٤٣، المغرب في حلى المغرب ٤١٨، نهاية الأرب ٢٨/٣٩٣ ـ ٣٩٤، المختصر في أخبار البشر ٣/٥٩ ـ ٦٠، الدر المطلوب ٦٣، دول الإسلام ٢/٨٦ ـ ٨٧، العبر ٤/٢١٦ ـ ٢١٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٣ هـ) ص ١٩ ـ ٢٠، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٧، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٢، السلوك ج ١ ق ١/٦٤، شفاء القلوب ٩٣ ـ ٩٤، تاريخ ابن سباط ١/١٤٩ ـ ١٥٠، تاريخ الأزمنة ١٧٧، شذرات الذهب ٤/٢٤٤.

(٣) انظر خبر حماة في: البرق الشامي ٣/٥٢ ـ ٥٥، سنا البرق الشامي ١/٢٦٦ ـ ٢٦٨، النوادر السلطانية ٥٣، مفرّج الكروب ٢/٦٤، زبدة الحلب ٣/٣٤ ـ ٣٦، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/٣٤٣، الروضتين ج١ ق ٢/٧٠٥ ـ ٧٠٨، المختصر في أخبار البشر ٣/٦٠، العبر ٤/٢١٧، دول الإسلام ٢/٨٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٣ هـ) ص ٢١، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٨، مرآة الجنان ٣/٣٩٨، البداية والنهاية ١٢/٢٩٨، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٢ ـ ٢٩٣، السلوك ج ١ ق ١/٦٥ شفاء القلوب =

ذلك أنه وصل من البحر إلى الساحل الشاميّ كُنْدٌ كبير من الفرنج من أكبر طواغيتهم، فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزماً، فاغتنم خُلُوّ البلاد، لأن شمس الدولة بن أيّوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين، وليس عنده كثير من العسكر، وكان أيضاً كثير الانهماك في اللّذات مائلاً إلى الراحات، فجمع ذلك الكُند الفرنجيّ من بالشام من الفرنج، وفرّق فيهم الأموال، وسار إلى مدينة حماة فحصرها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين، وهو مريض شديد المرض، وكان طائفة من العسكر الصلاحيّ بالقرب منها، فدخلوا إليها وأعانوا من بها.

وقاتل الفرنج على البلد قتالاً شديداً وهجموا بعض الأيام على طرفٍ منه، وكادوا يملكون البلد قهراً وقسراً، فاجتمع أهل البلد مع العسكر إلى تلك الناحية واشتدّ القتال، وعظُم الخَطْب على الفريقين، واستقلّ المسلمون وحاموا عن الأنفس والأهل والمال، فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهره، ودام القتال ظاهر البلد ليلاً ونهاراً، وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد، وطمعوا فيهم، وأكثروا فيهم القتل، فرحل الفرنج حينئذٍ خائبين، وكفى الله المسلمين شرّهم، فساروا إلى حارِم فحصروها، وكان مُقامهم على حماة أربعة أيام.

ولمّا رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارميّ، وكان له ابنٌ من أحسن الشّباب مات قبله بثلاثة أيام[1].

ذكر قتل كُمُشْتكِين وحصر الفرنج حارم

في هذه السنة قبض الملك الصالح بن نور الدين على سعد الدين كُمُشْتَكِين، وكان المتولّي لأمر دولته والحاكم فيها؛ وسبب قبضه أنّه كان بحلب إنسان من أعيان أهلها يقال له أبو صالح بن العجميّ، وكان مقدّماً عند نور الدين محمود، فلما مات نور الدين تقدّم أيضاً في دولة ولده الملك الصالح، وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكّن لكثرة أتباعه بحلب ولأنّ كل من كان يحسد كمشتكين انضمّ إلى صالح،

= ٩٤ ـ ٩٥، الإعلام والتبيين ٣١، تاريخ الأزمنة ١٧٧ ـ ١٧٨، تاريخ ابن سباط ١/١٥١.

(١) سنا البرق الشامي ١/٢٦٩، مفرّج الكروب ٢/٧٠، المختصر في أخبار البشر ٣/٦١، مرآة الجنان ٣/٣٩٨، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٨، البداية والنهاية ١٢/٢٩٨، تاريخ ابن سباط ١/١٥١.

وقوّوا جنانه، وكثّروا سواده؛ وكان عنده إقدام وجُرْأَةٌ فصار واحد الدولة بحلب، ومن يصدر الجماعة عن رأيه وأمره.

فبينما هو في بعض الأيام في الجامع وثب به الباطنيّة فقتلوه ومضى شهيداً، وتمكّن بعده سعد الدين وقوي حاله، فلمّا قُتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين، وقالوا: هو وضع الباطنيّة عليه حتى قتلوه، وذكروا ذلك للملك الصالح، ونسبوه إلى العجز، وأنّه ليس له حكم، وأن سعد الدين قد تحكم عليه واحتقره واستصغره، وقتل وزيره، ولم يزالوا به حتى قبض عليه.

وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد أقطعه إيّاها الملك الصالح، فامتنع من بها بعد قبضه، وتحصّنوا فيها، فسُيّر سعد الدين إليها تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح، فأمرهم بذلك، فامتنعوا، فعذّب كُمُشْتَكِين وأصحابه يرونه ولا يرحمونه، فمات في العذاب، وأصرّ أصحابه على الامتناع والعصيان.

فلما رأى الفرنج ذلك ساروا إلى حارم من حماة في جُمادى الأولى، على ما نذكره، ظنّاً منهم أنهم لا ناصر لهم، وأن الملك الصالح صبيّ قليل العسكر، وصلاح الدين بمصر، فاغتنموا هذه الفرصة ونازلوها وأطالوا المقام عليها مدّة أربعة أشهر، ونصبوا عليها المجانيق والسلالم، فلم يزالوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح مالاً، وقال لهم: إن صلاح الدين واصلٌ إلى الشام، ورُبّما سلّم القلعة من بها إليه، فأجابوه حينئذٍ إلى الرحيل عنها، فلما رحلوا عنها سيّر إليها الملك الصالح جيشاً فحصروها، وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج، وصاروا كأنهم طلائع، وكان قد قُتل من أهلها وجُرح كثير، فسلّموا القلعة إلى الملك الصالح، فاستناب بها مملوكاً كان لأبيه اسمه سَرْخَك[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في المحرّم، خُطب للسلطان طُغرُل بن أرسلان بن طُغرل بن

(١) البرق الشامي ٣/٧٣، سنا البرق الشامي ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٨، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٧٠٤ ـ ٧٠٨، النوادر السلطانية ٥٣، التاريخ الباهر ١٧٨، مفرّج الكروب ٢/ ٦٣، زبدة الحلب ٣/ ٣٤ ـ ٣٥، عقد الجمان ١٢/ ورقة ٢١١ أ، ب.

محمّد بن ملكشاه المقيم عند إيلدكز بهمذان، وكان أبوه أرسلان قد تُوفي.

وفيها، سابع شوّال، هبّت ببغداد ريح عظيمة، فزلزلت الأرض، واشتدّ الأمر على النّاس حتى ظنّوا أن القيامة قد قامت، فبقي ذلك ساعة ثمّ انجلت، وقد وقع كثير من الدُّور، ومات فيها جماعة كثيرة[(١)].

وفيها، رابع ذي القعدة، قُتل عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفّر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المُسلِمة وزير الخليفة، وكان قد عزم على الحجّ فعبر دجلة ليسير، وعبر معه أرباب مناصب، وهو في موكب عظيم، وتقدّم إلى أصحابه أن لا يمنعوا عنه أحداً، فلمّا وصل إلى باب قُطُفْتا لقيه كهل فقال: أنا مظلوم؛ وتقدّم ليسمع الوزير كلامه، فضربه بسكّين في خاصرته، فصاح الوزير: قتلني! ووقع من الدابة، وسقطت عمامته، فغطّى رأسه بكمّه، وضربِ الباطنيّ بسيف، وعاد إلى الوزير فضربه، وأقبل حاجب الباب ابن المعوّج لينصر الوزير، فضربه الباطنيّ بسكّين، وقيل بل ضربه رفيق كان للباطنيّ، ثمّ قُتل الباطنيّ ورفيقه؛ وكان لهما رفيق ثالث، فصاح وبيده سكّين فقُتل ولم يعمل شيئاً، وأُحرقوا ثلاثتهم، وحُمل الوزير إلى دار له هناك، وحُمل حاجب الباب مجروحاً إلى بيته، فمات هو والوزير، وحُمل الوزير فدُفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند جامع المنصور.

وكان الوزير قد رأى في المنام أنّه معانق عثمان بن [عفّان]، وحكى عنه ولده أنه اغتسل قبل خروجه، وقال: هذا غسل الإسلام، وأنا مقتول بلا شكّ؛ وكان مولده في جُمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة، وكان أبوه أستاذ دار المقتفي لأمر الله، فلمّا مات ولي هو مكانه، فبقي كذلك إلى أن مات المقتفي، فأقرّه المستنجد على ذلك ورفع قدره، فلما وليَ المستضيء استوزره، وكان حافظاً للقرآن، سمع الحديث، وله معروف كثير، وكانت داره مَجْمعاً للعلماء، وخُتمت أعماله بالشهادة وهو على قصد الحجّ[(٢)].

---

(١) المنتظم ١٠/ ٢٧٢ (١٨/ ٢٣٩)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٣ هـ) ص ١٧.

(٢) المنتظم ١٠/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤ (١٨/ ٢٤٠ ـ ٢٤١) البرق الشامي ٣/ ٨٩ ـ ٩٠، تاريخ مختصر الدول ٢١٦، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٩، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٧١٤ ـ ٧١٥، مختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٤١، خلاصة الذهب المسبوك ٢٧٩، دول الإسلام ٢/ ٨٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٣ هـ) ص ١٧ ـ ١٨، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٨، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٨، مرآة الجنان ٣/ ٣٩٨،=

وفيها كانت فتنة ببغداد، وسببها أنه حضر قوم من مسلمي المدائن إلى بغداد، فشكوا من يهودها، وقالوا: لنا مسجد نؤذن فيه ونصلّي، وهو مجاور الكنيسة، فقال لنا اليهود: قد آذيتمونا بكثرة الأذان؛ فقال المؤذّن: ما نُبالي بذلك؛ فاختصموا، وكانت فتنة استظهر فيها اليهود، فجاء المسلمون يشكون منهم، فأمر ابن العطّار، وهو صاحب المخزن، بحبسهم، ثمّ أُخرجوا، فقصدوا جامع القصر، واستغاثوا قبل صلاة الجمعة، فخفّف الخطيب الخطبة والصلاة، فعادوا يستغيثون، فأتاهم جماعة من الجند ومنعوهم، فلما رأى العامة ما فُعل بهم غضبوا نصرة للإسلام، فاستغاثوا، وقالوا أشياء قبيحة، وقلعوا طوابيق الجامع، ورجموا الجُند فهربوا، ثمّ قصد[1] العامّة دكاكين المخلطين، لأن أكثرهم يهود، فنهبوها، وأراد حاجب الباب منعهم، فرجموه فهرب منهم، وانقلب البلد، وخرّبوا الكنيسة التي عند دار البساسيري، وأحرقوا التوارة فاختفى اليهود، وأمر الخليفة أن تُنقض[2] الكنيسة التي بالمدائن وتُجعل مسجداً، ونُصب بالرحبة أخشابٌ ليُصلب عليها قوم من المفسدين، فظنّها العامة نُصبت تحويفاً لهم لأجل ما فعلوا، فعلّقوا عليها في الليل جرذاناً[3] ميتة، وأُخرج جماعة من الحبس لصوص فصُلبوا عليها[4].

وفيها، في شعبان، قبض سيف الدين غازي، صاحب الموصل، على وزيره جلال الدين علي بن جمال الدين بغير جُرمٍ ولا عجز، ولا لتقصير، بل لعجز سيف الدين، فإنّ جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز مشاحنةٌ، فقال مجاهد الدين لسيف الدين: لا بُدّ من قبض الوزير؛ فقبض عليه كارهاً لذلك، ثم شفع فيه ابن نيسان رئيس آمد لصهرٍ بينهما، فأُخرج، وسار إلى آمد فمرض بها، وعاد إلى دُنيسر، فمات سنة أربعٍ وسبعين [وخمسمائة] وعمره سبعٌ وعشرون سنة، وحُمل إلى مدينة النبيّ ﷺ، فدُفنَ عند والده في الرباط الذي بناه بها.

= تاريخ ابن سباط ١/ ١٥١.

(١) في الأوربية: «فقصد».

(٢) في الأوربية: «تنقص».

(٣) في الأوربية: «جرداناً».

(٤) المنتظم ١٠/ ٢٧٥ (١٨/ ٢٤٢)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٣ هـ) ص ١٨ ـ ١٩، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٨.

وكان، رحمه الله، من محاسن الدنيا، جمع كرماً، وعلماً، وديناً، وعفّة، وحُسن سيرة، واستحلفه سيف الدين أنه لا يمضي إلى صلاح الدين لأنه خاف أن يمضي إليه للمودّة التي كانت بين جمال الدين وبين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، فبلغني أن صلاح الدين طلبه فلم يقصده لليمين.

وفيها اجتمع طائفة من الفرنج وقصدوا أعمال حمص فنهبوها وغنموا، وأسروا وسبوا، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه، صاحب حمص، وسبقهم ووقف على طريقهم، وكمن لهم، فلما وصلوا إليه خرج إليهم هو والكمين، ووضعوا السيف فيهم، فقُتل أكثرهم وأُسر جماعة من مقدمتهم، ومن سلم منهم لم يفلت إلا وهو مُثخن بالجراح، واستردّ منهم جميع ما غنموا فردّه على أصحابه[1].

[الوفيات]

وفيها، في ربيع الآخر، توفّي صدقة بن الحسين الحدّاد، الذي ذيّل «تاريخ ابن الزاغونيّ» ببغداد[2].

وفيها، في جُمادى الأولى، تُوفّي محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الفقيه الحنفيّ المعروف بالمشطّب ببغداد.

---

(١) البرق الشامي ٣/ ٧٢، سنا البرق الشامي ١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦، عقد الجمان ١٢/ ورقة ١/ ٢ ب.

(٢) انظر عن (صدقة بن الحسين) في المنتظم ١٠/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨ رقم ٣٦٥، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٤٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٦١، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٦٦ ـ ٦٧ رقم ٢٣، وذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٣٩، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٥٣، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٨ وفيه «الذي ذيل تاريخ ابن الزعفراني» ولسان الميزان ٣/ ١٨٤، وشذرات الذهب ٤/ ٢٤٥، وكشف الظنون ٢٩٠، ومعجم المؤلفين ٥/ ١٨.

٥٧٤

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضاً

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار جمعٌ كثير من الفرنج بالشام إلى مدينة حماة، وكثر جَمعُهم من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والغارة، فشنّوا الغارة، ونهبوا، وخرّبوا القرى، وأحرقوا، وأسروا، وقتلوا، فلما سمع العسكر المقيم بحماة ساروا إليهم، وهم قليل، متوكّلين على الله تعالى، فالتقوا واقتتلوا، وصدق المسلمون القتال، فنصرهم الله تعالى، وانهزم الفرنج، وكثر القتل والأسر فيهم، واستردّوا منهم ما غنموه من السواد.

وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام في شوّال من السنة المتقدّمة، وهو نازل بظاهر حمص، فحُملت الرؤوس والأسرى والأسلاب إليه، فأمر بقتل الأسرى فقُتلوا[١].

ذكر عصيان ابن المقدّم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه

في هذه السنة عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدّم على صلاح الدين ببعلبك، وكانت له قد سلّمها إليه صلاح الدين لما فتحها جزاءً له حيث سلّم إليه ابن المقدم دمشق، على ما سبق ذكره، فلم تزل بيده إلى الآن، فطلب شمس الدولة بن أيوب أخو صلاح الدين منه بعلبك، وألحّ عليه في طلبها لأن تربيته ومنشأه كان بها، وكان يحبّها، ويختارها على غيرها من البلاد، وكان الأكبر، فلم يمكن صلاح الدين مخالفته، فأمر شمس الدين بتسليمها إلى أخيه ليعوضه عنها، فلم يُجب إلى ذلك،

---

(١) البرق الشامي ٣/١٢٨ ـ ١٣٠، سنا البرق الشامي ٣٠٦/١ ـ ٣٠٨، الروضتين ج ٥/٢، مفرّج الكروب ٢/ ٧٠ ـ ٧١، عقد الجمان ١٢/ ورقة ٢١٤ ب.

وذكّره العهود التي له، وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه، فلم يُصغِ إليه ولجَّ عليه في أخذها، وسار ابن المقدّم إليها، واعتصم بها، فتوجه إليه صلاح الدين، وحصره بها مدة[1]، ثم رحل عنها من غير أن يأخذها، وترك عليه عسكراً يحصره، فلما طال عليه الحصار أرسل إلى صلاح الدين يطلب العوض عنها ليسلّمها إليه، فعوّضه عنها وسلّمها، فأقطعها صلاح الدين أخاه شمس الدولة[2].

ذكر الغلاء والوباء العام

في هذه السنة انقطعت الأمطار بالكلية في سائر البلاد الشامية والجزيرة والبلاد العراقيّة، والديار بكريّة، والموصل وبلاد الجبل، وخلاط، وغير ذلك، واشتدّ الغلاء، وكان عامّاً في سائر البلاد، فبيعت غرارة الحنطة بدمشق، وهي اثنا عشر مكّوكاً بالموصلي، بعشرين ديناراً صُوَرِيّة عُتقاً[3]، وكان الشعير بالموصل كلّ ثلاثة[4]، مكاكي بدينارٍ أميري، وفي سائر البلاد ما يناسب ذلك[5].

واستسقى الناس في أقطار الأرض، فلم يُسْقوا، وتعذّرت الأقوات، وأكلت الناس الميتة وما ناسبها، ودام كذلك إلى آخر سنة خمس وسبعين [وخمسمائة]، ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد عام أيضاً، كثر فيه الموت، وكان مرض الناس شيئاً واحداً، وهو السرسام، وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى، إلا أن بعض البلاد كان أشد من البعض.

ثم إن الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب وأرسل الأمطار، وأرخص الأسعار.

ومن عجيب ما رأيت أنّني قصدتُ رجلاً من العلماء الصالحين بالجزيرة لأسمع عليه شيئاً من حديث النبي عليه السلام، في شهر رمضان سنة خمسٍ وسبعين

---

(١) في الأصل زيادة: «فلم».

(٢) البرق الشامي ٣/ ٩٢ ـ ٩٤ و٩٥ و١٣٢ و١٣٤ ـ ١٤٠، سنا البرق الشامي ١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٤، مفرّج الكروب ٢/ ٢٩٨، تاريخ الزمان ٩٤، الأعلاق الخطيرة ٢/ ٤٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦١، دول الإسلام ٢/ ٨٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٨، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٩، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٩٣، السلوك ج ١ ق ١/ ٦٥، تاريخ ابن سباط ١/ ١٥٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٤ هـ) ص ٢٦.

(٣) في الأوربية: «عتق».

(٤) في الأوربية: «ثلاث».

(٥) انظر: المنتظم ١٠/ ٢٨٥ (١٨/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

[وخمسمائة]، والناس في أشد ما كانوا غلاءً وقُنوطاً من الأمطار، وقد توسّط الربيع ولم تجيء قطرةً واحدة من المطر، فبينا أنا جالس ومعي جماعة ننتظر الشيخ، إذ أقبل إنسان تُركمانيّ قد أثّر عليه الجوع، وكأنّه قد أُخرج من قبر، فبكى وشكا الجوع، فأرسلتُ من يشتري له خبزاً، فتأخّر إحضاره لعدمه، وهو يبكي ويتمرّغ على الأرض ويشكو الجوع، فلم يبق فينا إلا من بكى رحمةً له وللناس، ففي الحال تغيّمت السماء وجاءت نُقَطٌ من المطر متفرّقة، فضجّ الناس واستغاثوا، ثم جاء الخبز، فأكل التركماني بعضه، وأخذ الباقي ومشى واشتدّ المطر ودام المطر من تلك الساعة.

ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين

في هذه السنة، في ذي القعدة، اجتمع الفرنج وساروا إلى بلد دمشق مع ملكهم، فأغاروا على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا، فأرسل صلاح الدين فرخشاه، ولد أخيه، في جمع من العسكر إليهم، وأمره أنّه إذا قاربهم يرسل إليه يُخبره على جناح طائر ليسير إليه، وتقدم إليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدي الفرنج، فسار فَرُّخْشاه في عسكره يطلبهم، فلم يشعر إلا والفرنج قد خالطوه، فاضطرّ إلى القتال، فاقتتلوا أشدّ قتال رآه الناس، وألقى فَرُّخْشاه نفسه عليهم، وغشي الحرب ولم يَكِلْها إلى سواه، فانهزم الفرنج ونُصر المسلمون عليهم، وقُتل من مقدّميهم جماعة ومنهم هنْفري[1]، وما أدراك ما هنفري؟ به كان يُضرب المثل في الشجاعة والرأي في الحرب، وكان بلاء صبّه الله على المسلمين، فأراح الله من شرّه، وقُتل غيره من أضرابه، ولم يبلغ عسكر فَرُّخشاه ألف فارس[2].

وفيها أيضاً أغار البرنس صاحب أنطاكية ولاذقيّة على جشير المسلمين بشيَزَر وأخذه[3].

---

(١) هو في المراجع الأجنبية «Hanfroi» أو «Humphrey of Toron» صاحب حصن بانياس وتبنين.

(٢) البرق الشامي ٣/١٤٩، سنا البرق الشامي ١/٣١٧، مرآة الزمان ج٨ ق ١/٣٥١، الروضتين ٢/٦، مفرّج الكروب ٢/٧٢ ـ ٧٣، العبر ٤/٢١٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٤ هـ) ص ٢٧، مرآة الجنان ٣/٣٩٩، البداية والنهاية ١٢/٣٠٠، السلوك ج ١ ق ١/٦٧، عقد الجمان ١٢/ ورقة ٢١٣ أ، ب، شذرات الذهب ٤/٢٦٤.

(٣) البرق الشامي ٣/١٥٥، سنا البرق الشامي ١/٣٢٢، الروضتين ٢/٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٤ هـ) ص ٢٧، البداية والنهاية ١٢/٣٠٠، السلوك ج ١ ق ١/٦٧، عقد الجمان ١٢/٢١٣ ب.

وأغار صاحب طرابلس على جَمْعٍ كثيرٍ من التُّركمان، فاحتجف أموالهم[١].

وكان صلاح الدين على بانياس، على ما نذكره إن شاء الله، فسيّر ولد أخيه تقيّ الدين عُمر إلى حماة وابن عمّه ناصر الدين محمد بن شيركوه إلى مصر، وأمرهما بحفظ البلاد، وحياطة أطرافها من العدو، دمرهم الله تعالى.

ذكر عدّة حوادث

ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر نحو ثلث اللّيل الأخير وغاب منكسفاً[٢].

وفيها أيضاً، في التاسع والعشرين، انكسفت الشمس وقت العصر، فغربت منكسفة[٣].

[الوَفَيَات]

وفي هذه السنة، في شعبان، تُوفّي الحَيْص بَيْص[٤] الشاعر، واسمه سعد بن محمّد بن سعد أبو الفوارس، وكان قد سمع الحديث، ومدح الخلفاء والسلاطين والأكابر. وشعره مشهور، فمنه قوله:

كُلّما أوسَعتُ حلْمي جاهلاً ... أوْسع الفُحشَ لهُ فُحشُ المَقال

وإذا شارِدَةٌ فُهْتُ بِهَا ... سَبَقْتْ مرَّ النّعامَى والشّمال

لا تَلُمْني في شقائي بالعُلَى ... رَغَدُ العَيشِ لِربّاتِ الحِجَال

سَيفُ عِزٍّ زانَهُ رَوْنَقُهُ ... فَهْوَ بالطّبعِ غنيٌّ عن صِقال

وفي المحرّم ماتت شُهْدة بنت أحمد بن عمر بن الإبَريّ الكاتبة، وسمعت الحديث من السرّاج وطرّاد وغيرهما، وعمّرت حتى قاربت مائة سنة، وسمع عليها خلق كثير الحديث لعُلوّ إسنادها.

---

(١) البرق الشامي ٣/١٥٨، سنا البرق الشامي ١/٣٢٢، السلوك ج ١ ق ١/٦٧، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري (تأليفنا) ج ١/٥٢٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٤ هـ) ص ٢٧.

(٢) في الأوربية: «مكسفاً».

(٣) المنتظم ١٠/٢٨٣ (١٨/٢٤٨)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٤ هـ) ص ٢٣.

(٤) انظر عن (الحيص بيص) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٧٤ هـ)، وتاريخ ابن سباط ١/١٥٢ (بتحقيقنا) وقد حشدت فيهما مصادر ترجمته.

٥٧٥

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

ذكر تخريب الحصن الذي بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان

كان الفرنج قد بنوا حصناً منيعاً يقارب بانياس، عند بيت يعقوب، عليه السلام، بمكان يُعرف بمخاضة الأحزان؛ فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق إلى بانياس، وأقام بها، وبثّ الغارات على بلاد الفرنج، ثم سار إلى الحصن وحصره ليخرّبه[1] ثمّ يعود إليه عند اجتماع العساكر، فلما نازل الحصن قاتل من به من الفرنج، ثمّ عاد عنه؛ فلما دخلت سنة خمسٍ وسبعين لم يفارق بانياس بل أقام بها وخيله تغير على بلاد العدوّ.

وأرسل جماعة من عسكره مع جالبي الميرة، فلم تشعر إلا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم، فأرسلوا إلى صلاح الدين يُعرّفونه الخبر [فسار][2] في العساكر مُجِداً [حتى][3] وافاهم وهم في القتال، فقاتل الفرنج قتالاً شديداً، وحملوا على المسلمين عدّة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم، ثمّ أنزل الله نصره على المسلمين، وهزم المشركين، وقُتلت منهم مقتلة كثيرة، ونجا ملكهم فريداً، وأُسر منهم كثير، منهم ابن بيرزان[4] صاحب الرملة ونابلس، وهو أعظم الفرنج محلاً بعد الملك، وأسروا أيضاً أخا صاحب جُبيل، وصاحب طَبرِيّة، ومقدّم الدّاوية، ومقدم الاسباتارية، وصاحب جِينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم، فأما ابن بيرزان فإنه فدى[5]

---

(١) في طبعة صادر ١١/ ٤٥٥ «ليخبره».

(٢) من الباريسية.

(٣) من الباريسية: «فوافاهم».

(٤) في (أ): «بيران»، وفي (ب): «سردان»، وفي المصادر: «بارزان».

(٥) في الأوربية: «فدا».

نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صُورَيّة، وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان أكثر العمل في هذا اليوم لعز الدين فَرُّخشاه ابن أخي صلاح الدين؛ وحكي عنه أنه قال: ذكرتُ في تلك الحال بيتي المتنبيّ وهما:

فإنْ تكُنِ الدّولاتُ قِسماً فإنها ... لمن يَرِدُ المَوْتَ الزّؤامَ تؤولُ
ومن هوّنَ الدّنيا على النّفسِ ساعةً ... وللبِيضِ في هامِ الكُماةِ صَليلُ[1]

فهان الموت في عيني، فألقيتُ نفسي إليه، وكان ذلك سبب الظّفر؛ ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس من موضع المعركة، وتجهّز للدخول إلى ذلك الحصن ومحاصرته، فسار إليه في ربيع الأوّل، وأحاط به، وقوّى طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه، وبثّ العساكر في بلد الفرنج للإغارة، ففعلوا ذلك، وجمعوا من الأخشاب والزَّرَجون شيئاً كثيراً ليجعله متارس للمجانيق، فقال له جاولي الأسديّ، وهو مقدّم الأسديّة وأكابر الأمراء: الرأي أنّنا نجرّبهم بالزحف أوّل مرّة، ونذوق قتال من به، وننظر الحال معهم، فإن استضعفناهم، وإلا فنصب المجانيق ما يفوت.

فقبل رأيه، وأمر فنودي بالزحف إليه، والجدُ في[2] قتاله، فزحفوا واشتدّ القتال، وعظُم الأمر، فصعِد إنسانٌ من العامة بقميصٍ خَلِق في باشورة الحصن وقاتل على[3] السور لمّا علاه وتبِعه غيره من أضرابه، ولحِق بهم الجُنْد فملكوا الباشورة، فصعِد الفرنج حينئذٍ منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد.

وكان الفرنج قد جمعوا بطبَرِيّة، فألحّ المسلمون في قتال الحصن، خوفاً من وصول الفرنج إليهم وإزاحتهم عنه، وأدركهم الليل، فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد، ففعلوا، فلمّا كان الغد أصبحوا وقد نقبوا الحصن، وعمّقوا النقب، وأشعلوا النيران فيه، وانتظروا سقوط السور، فلم يسقط لعرضه، فإنه كان تسعة أذرع بالنُجّاري، يكون الذراع ذراعاً ونصفاً، فانتظروه يومين فلم يسقط، فأمر صلاح الدين بإطفاء النار التي في النقب، فحمل الماء وألقي عليها فطفئت، وعاد

---

(١) ديوان المتنبي، بشرح العكبري ٣/ ١١٠ ـ ١١١.
(٢) في (ب): «إليه واتخذ في».
(٣) في (ب): «وتبعه غيره من أعلى الصور وقاتل».

النقابون فنقبوا، وخرّقوا السور، وألقوا فيه النار، فسقط يوم الخميس لستٍّ بقين من ربيع الأول، ودخل المسلمون الحصن عَنوةً وأسروا كل من فيه، وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين؛ وقتل صلاح الدين كثيراً من أسرى الفرنج، وأدخل الباقين إلى دمشق، وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن، وعفّى أثره، وألحقه بالأرض، وكان قد بذل الفرنج ستّين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال، فلم يفعلوا ظنّاً منهم أنه إذا بقي بناؤه[1] تمكّنوا به من كثير من بلاد الإسلام، وأما الفرنج فاجتمعوا بطبريّة ليحموا الحصن، فلما أتاهم الخبر بأخْذه فُتّ في أعضادهم، فتفرّقوا إلى بلادهم[2].

وأكثر الشعراء فيه، فمن ذلك قول صديقنا النّشْو بن نُفاذة[3]، رحمه الله:

هَلاكُ الفرنجِ أتى عاجِلاً ... وَقد آنَ تكسيرُ صُلبانِها
وَلوْ لم يَكُن قد دَنا حتفُها ... لما عَمّرتْ بيتَ أحزانِها[4]

وقول عليّ بن محمّد الساعاتّي الدّمشقيّ:

أتسكُنُ أوْطانَ النّبيّين عُصبَةٌ ... تَمِينُ[5] لَدَى أيمانِها[6] وَهيَ تحلِفُ
نَصَحتُكُمُ والنّصْحُ للدّينِ واجبٌ ... ذَرُوا بيتَ يَعقوبٍ فقد جاء يوسُفُ[7]

ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلج أرسلان

في هذه السنة كانت الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومقدّمهم

---

(١) في الأوربية: «فرغوا بناه».

(٢) البرق الشامي ٣/ ١٦٢ ـ ١٦٩، سنا البرق الشامي ١/ ٣٢٦ ـ ٣٢٨، مفرّج الكروب ٢/ ٧٥ ـ ٧٦، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥، مضمار الحقائق ١٦ ـ ١٨ و٢٠، دول الإسلام ٢/ ٨٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٥ هـ) ص ٢٩ ـ ٣٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٢، السلوك ج ١ ق ١/ ٦٨، عقد الجمان ١٢/ ورقة ٢١٣ ب، ٢١٤ أ، النجوم الزاهرة ٥/ ١٥٢، تاريخ ابن سباط ١/ ١٥٥ ـ ١٥٦، الإعلام والتبيين ٣٢، شذرات الذهب ٤/ ٢٤٩.

(٣) في الباريسية: «يعادة» وهو: أحمد بن عبد الله بن نفاذة الدمشقي المتوفى سنة ٦٠١ هـ.

(٤) البيتان في سنا البرق الشامي ١/ ٣٣٨، ومرآة الزمان ١٤/ ورقة ١٣٠ ب، وبغية الطلب ١/ ورقة ١٦٢ أ، والبداية والنهاية ١٢/ ٣٠٣، وعقد الجمان ١٢/ ورقة ٢١٤ أ.

(٥) في الأوربية: «تميز».

(٦) في الباريسية: «يمين أرى أيمانها».

(٧) البيتان في سنا البرق الشامي ١/ ٣٣٨، والروضتين ٢/ ١١ ـ ١٢، ومفرّج الكروب ٢/ ٨٣، ومسالك الأبصار ٢٧/ ورقة ٣٧ أ.

ابن أخيه تقيّ الدين عُمر بن شاهنشاه بن أيّوب، وبين عسكر الملك قِلِج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، صاحب بلاد قُونيَة، وأقصَرا.

وسببها أن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر، رحمه الله، كان قد أخذ قديماً من قلج أرسلان حصن رَعْبَان، وكان بيد شمس الدين بن المقدّم إلى الآن، فطمع فيه قلج أرسلان بسبب أنّ الملك الصالح بحلب بينه وبين صلاح الدين، فأرسل إليه من يحصره، فاجتمع عليه جمعٌ كثير، يقال: كانوا عشرين ألفاً، فأرسل إليهم صلاح الدين تقيّ الدين في ألف فارس، فواقعهم وقاتلهم وهزمهم، وأصلح حال تلك الولاية، وعاد إلى صلاح الدين، ولم يحضر معه تخريب حصن الأحزان، فكان يفتخر ويقول: هزمتُ بألف مقاتل عشرين ألفاً[١].

ذكر وفاة المستضيء بأمر الله وخلافة الناصر لدين الله

في هذه السنة، في ثاني ذي القعدة، تُوفي الإمام المستضيء بأمر الله[٢] أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف[٣] المستنجد، رضي الله عنه، وأمه أم ولد أرمنيّة تُدعَى غضّة؛ وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر؛ وكان مولده سنة ستّ وثلاثين وخمسمائة، وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه؛ وكان الناس معه في أمنٍ عام وإحسان شامل، وطمأنينة وسكون، لم يروا مثله، وكان حليماً، قليل المعاقبة على الذنب، مُحِبّاً للعفو والصفح عن المذنبين، فعاش حميداً، ومات سعيداً، رضي الله عنه، فلقد كانت أيامه كما قيل:

كأنّ أيّامَهُ مِن حُسنِ سِيرتِهِ ... مَوَاسِمُ الحَجّ والأعيادُ وَالجُمَعُ

ووزر له عضُد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء[٤] إلى أن قُتل في ذي القعدة

---

(١) سنا البرق الشامي ١/٣٣١، النوادر السلطانية ٥٣، تاريخ الزمان ١٩٥، الروضتين ٢/٩، المختصر في أخبار البشر ٣/٦١، العبر ٤/٢٢٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٥ هـ) ص ٣٠ - ٣١، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٩، مرآة الجنان ٣/ ٤١٠، البداية والنهاية ١٢/٣٠٢ - ٣٠٣، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٤، السلوك ج ١ ق ١/٦٨ - ٦٩، شفاء القلوب ٩٧، تاريخ ابن سباط ١/١٥٣.

(٢) انظر عن (المستضيء بأمر الله) في تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٥٧٥ هـ) ص ٣٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٣) في (ب): «يوسف بن أبي نصر».

(٤) الفخري ٣١٩، مختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٤٠، خلاصة الذهب المسبوك للإربلي ٢٧٩.

سنة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائة، ولما قُتل حكم في الدولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطّار[1]، وكان خيّراً، حسن السيرة، كثير العطاء، وتمكّن تمكّناً كثيراً، فلما مات المستضيء شرع ظهير الدين ابن العطار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله، أمير المؤمنين، فلما تمت البيعة صار الحاكم في الدولة أستاذ الدار مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب.

وفي سابع ذي القعدة قبض على ابن العطّار ظهير الدين، ووُكل عليه في داره، ثم نُقل إلى التاج، وقُيّد ووُكّل به، وطُلبت ودائعه وأمواله، وفي ليلة الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة أُخرج ميّتاً على رأس حمّال سرّاً، فغمز به بعض الناس، فثار به العامّة، فألقوه عن رأس الحمّال، وكشفوا سَوْأته، وشدّوا في ذَكَره حبلاً وسحبوه في البلد، وكانوا يضعون[2] بيده مغرفة يعني أنّها قلم وقد غمسوها في العذرة ويقولون[3]: وَقِعْ لنا يا مولانا، إلى غير هذا من الأفعال الشنيعة، ثمّ خُلّص من أيديهم ودُفن.

هذا فِعلهم به مع حُسن سيرته فيهم وكفّه عن أموالهم وأعراضهم[4].

وسُيّرت الرُّسل إلى الآفاق لأخذ البيعة، فسيّر صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان، صاحب همذان وأصفهان والرَّيّ وغيرها، فامتنع من البيعة، فراجعه صدر الدين، وأغلظ له في القول، حتى إنّه قال لعسكره في حضرته: [ليس] لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين، بل يجب عليكم أن تخلعوه من الإمارة، وتقاتلوه، فاضطرّ إلى البيعة والخطبة، وأرسل إلى رضيّ الدين القزوينيّ مدرّس النظاميّة إلى الموصل لأخذ البيعة، فبايع صاحبها، وخطب للخليفة النّاصر لدين الله أمير المؤمنين.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة هبّت ريح سوداء مظلمة بالدّيار الجزَريّة والعراق وغيرها، وعمّت

---

(١) الفخري ٣٢١ و٣٢٣.

(٢) في الأوربية: «يضعوا».

(٣) في الأوربية: «ويقول».

(٤) تاريخ الزمان ١٩٥ ـ ١٩٦، تاريخ مختصر الدول ٢١٧ ـ ٢١٨، الفخري ٣٢٣، مضمار الحقائق ١١ ـ ١٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٥ هـ) ص ٣٤ ـ ٣٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٩ ـ ٩٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٥، مآثر الإنافة ٢/ ٥٧، العسجد المسبوك ١٧٤ ـ ١٧٥، النجوم الزاهرة ٦/ ٨٥، تاريخ ابن سباط ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥.

أكثر البلاد من الظهر إلى أن مضى من الليل ربعه، وبقيت الدنيا مظلمة يكاد الإنسان لا يبصر صاحبه، وكنتُ حينئذٍ بالموصل، فصلّينا العصر والمغرب والعشاء الآخرة على الظُنّ والتّخمين، وأقبل الناس على التضرّع والتوبة والاستغفار، وظنّوا أنّ القيامة قد قامت، فلمّا مضى مقدار ربع الليل زال ذلك الظلام والعتمة التي غطّت السماء، فنظرنا فرأينا النجوم، فعلمنا مقدار ما مضى من الليل، لأن الظلام لم يزدَدْ بدخول الليل، وكان كلّ من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك.

وفيها، في ذي القعدة، نزل شمس الدولة أخو صلاح الدين عن بعلبكّ، وطلب عوضاً عنها الإسكندريّة، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وأقطع بعلبك لعزّ الدين فَرُّخْشاه ابن أخيه، فسار إليها، وجمع أصحابه، وأغار على بلاد الفرنج، حتى وصل إلى قلعة صفد، وهي مطلّة على طبريّة، فسبَى وأسر وغنم وخرّب وفعل في الفرنج أفاعيل عظيمة.

وأما شمس الدولة فإنه سار إلى مصر وأقام بالإسكندرية. وإذا أراد الله أن يقبض رجلاً بأرض جعل له إليها حاجة، فإنه أقام بها إلى أن مات بها[1].

وفيها قارب الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ، وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة، وهو من أحسن الجوامع.

[الوفيات]

وفيها تُوفي أحمد بن عبد الرحمن الصوفي شيخ رباط الزوزَنيّ، وسمع الحديث وكان يصوم الدهر.

وعبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف، سمع الحديث ورواه، وهو من بيت الحديث.

والقاضي عمر بن علي بن الخضر أبو الحسن الدمشقي، سمع الحديث ورواه، وولي قضاء الحريم.

وعليُّ بن أحمد الزيدي، سمع الحديث الكثير، وله وقف كُتُب كثيرة ببغداد،

---

(١) سنا البرق الشامي ١/٣٤١ ـ ٣٤٢، المختصر في أخبار البشر ٣/٦٢، تاريخ ابن الوردي ٢/٩٠، البداية والنهاية ١٢/٣٠٣، العسجد المسبوك ٢/١٧٦، تاريخ ابن سباط ١/١٥٦.

وكان زاهداً، خيّراً، صالحاً.

ومحمّد بن علي بن حمزة أبو علي الأقساسيّ نقيب العلويّين بالكوفة، وكان ينشد كثيراً:

رَبّ قَــومْ فــي خَــلائِقِهِــمْ عُــرَرٌ قــد صُيّــرُوا غُــرَرَا
سَتَــرَ المــالُ القبيــحَ لَهُــمْ سَتَــرَى إنْ زالَ مــا سَتَــرَا

ومحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن سديد الدولة الأنباري، كاتب الإنشاء بعد أبيه.

وأبو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الدامغاني الفقيه، كان مناظراً أحسن المناظرة، كثير العبادة، ودُفن عند قبر أبي حنيفة.

٥٧٦

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية أخيه عزّ الدين بعده

في هذه السنة، ثالث صفر، تُوفي سيف الدين غازي بن مودود[١] بن زنكي، صاحب الموصل وديار الجزيرة، وكان مرضه السلّ، وطال به، ثم أدركه في آخره سرسام، ومات.

ومن عجيب ما يُحكى أن الناس خرجوا سنة خمسٍ وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث وشدّة الغلاء، وخرج سيف الدين في موكبه، فثار به الناس وقصدوه بالاستغاثة، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك، فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمّارين، وخرّبوا أبوابها، ودخلوها، ونهبوها، وأراقوا ما بها من خمور، وكسروا الظروف، وعملوا ما لا يحلّ، فاستغاث أصحاب الدُّور إلى نوّاب السلطان، وخصّوا بالشكوى رجلاً من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق، ولم يكن له يدٌ في الذي فعله العامة من النهب، وما لا يجوز فعله، إنما هو أراق الخمور، ونهى العامة عن الذي يفعلونه، فلم يسمعوا منه، فلما شكا الخمّارون منه أُحضر بالقلعة، وضُرب على رأسه، فسقطت عمامته، فلما أُطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس، فأرادوا تغطيته بعمامته، فلم يفعل، وقال: والله لا غطّيتُ رأسي حتى ينتقم الله لي ممّن ظلمني! فلم يمضِ غير أيام حتى تُوفي الدَّزدار[٢] الذي تولى أذاه، ثم بعقِبه مرض سيف الدين، واستمر إلى أن مات، وعُمره حينئذٍ نحو ثلاثين سنة. وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر، وكان حسن الصورة، مليح الشباب، تامّ القامة، أبيض اللّون، وكان عاقلاً وقوراً، قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس، عفيفاً لم يُذكر عنه ما يُنافي العفّة.

---

(١) انظر عن (غازي بن مودود) في تاريخ ابن سباط ١/١٥٧ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) الدِّزدار: المحافظ.

وكان غيوراً شديد الغيرة لا يدخل دُوره غيرُ الخَدَم الصغار، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان لا يحبّ سفك الدماء، ولا أخذ الأموال على شحّ فيه وجُبن.

ولما اشتد مرضُه أراد أن يعهد بالملك لابنه معزّ الدين سَنجَر شاه، وكان عمره حينئذٍ اثنتي عشرة[1] سنة، فخاف على الدولة من ذلك لأن صلاح الدين يوسف بن أيّوب كان قد تمكّن بالشام، وقوي أمره، وامتنع أخوه عزّ الدين مسعود بن مودود من الإذعان لذلك والإجابة إليه، فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل المُلْك بعده في عز الدين أخيه، لما هو عليه من كِبَر السن والشجاعة والعقل وقوّة النفس، وأن يعطي ابنيه بعض البلاد، ويكون مرجعهما إلى عزّ الدين عمّهما والمتولّي لأمرهما مجاهد الدين قايماز، ففعل ذلك، وجعل المُلك في أخيه، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سَنجَر شاه، وقلعة عَقْر الحُمَيْدِيّة لولده الصغير ناصر الدين كسك[2].

فلما توفي سيف الدين ملك بعده الموصل والبلاد أخوه عز الدين، وكان المدبّر للدولة مجاهد الدين، وهو الحاكم في الجميع، واستقرّت الأمور ولم يختلف اثنان.

ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلج أرسلان

في هذه السنة سار صلاح الدين يوسف بن أيّوب من الشام إلى بلاد قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، وهي مَلَطْية وسِيواس وما بينهما، وقُونية ليحاربه.

وسبب ذلك أن نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود، صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر، كان قد تزوّج ابنة قِلج أرسلان المذكور، وبقيت عنده مدّة، ثمّ إنه أحب مغنية، فتزوّجها، ومال إليها، وحكمت في بلاده وخزائنه، وأعرض عن ابنة قلج أرسلان، وتركها نَسْياً مَنْسِياً، فبلغ أباها الخبر، فعزم على قصد نور الدين وأخذ بلاده، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستجير به ويسأله كفّ يد قلج أرسلان عنه، فأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان في المعنى، فأعاد الجواب: إنّني كنتُ قد سلّمتُ إلى نور الدين عدّة حصون مجاورة بلاده لما تزوج ابنتي، فحيث آل الأمر معه إلى ما

---

(١) في الأوربية: «اثني عشر».
(٢) في الباريسية: «كشك».

تعلمه[1]، فأنا أريد أن يعيد إليّ ما أخذه منّي.

وتردّدت الرسل بينهما، فلم يستقرّ حال فيها، فهادن صلاح الدين الفرنج، وسار في عساكره، وكان الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها، فتركها ذات اليسار، وسار على تلّ باشِر إلى رعبان، فأتاه بها نور الدين محمد وأقام عنده، فلما سمع قلج أرسلان بقربه منه أرسل إليه أكبر أمير عنده، ويقول له: إنّ هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا، ولا بُدّ من قصد بلاده، وتعريفه محلّ نفسه، فلمّا وصل الرسول، واجتمع بصلاح الدين، وأدّى الرسالة، امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ، وقال للرسول: قُل لصاحبك والله الذي لا إلٰه إلاّ هو لئن لم يرجع لأسيرنّ إلى مَلَطْيَة وبيني وبينها يومان، ولا أنزل عن فرسي إلاّ في البلد، ثمّ أقصد جميع بلاده وآخذها منه.

فرأى الرسول أمراً شديداً، فقام من عنده، وكان قد رأى العسكر وما هو عليه من القوّة والتجمّل، وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك، وليس عنده ما يقاربه، فعلم أنه إن قصدهم أخذ بلادهم، فأرسل إليه من الغد يطلب أن يجتمع به، فأحضره فقال له: أريد أن أقول شيئاً من عندي ليس رسالة عن صاحبي، وأُحب أن تنصفني. فقال له: قُلْ! قال: يا مولانا ما هو قبيح بمثلك، وأنت من أعظم السلاطين وأكبرهم شأناً، أن تسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج، وتركت الغزو ومصالح المملكة، وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة، وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة، وسِرْت وخسرت أنت وعساكرك الأموال العظيمة لأجل قَحْبة مُغنية؟ ما يكون عذرك عند الله تعالى، ثمّ عند الخليفة وملوك الإسلام والعالم كافّة؟ واحسِب أن أحداً ما يواجهك بهذا، أما يعلمون[2] أن الأمر هكذا؟ ثم احسب أن قلج أرسلان مات، وهذه ابنته قد أرسلتني إليك تستجير بك، وتسألك أنْ تُنصفها من زوجها، فإن فعلت، فهو الظن بك أن لا تردها.

فقال: واللّهِ الحقُّ بيدك، وإن الأمر لكما تقول، ولكن هذا الرجل دخل عليّ وتمسّك بي ويقبُح بي تَرْكه، لكنّك أنت اجتمع به، وأصلح الحال بينكم على ما

---

(١) في الأوربية: «يعلمه».

(٢) في (أ): «تعلمون» وفي (ب): «وما يعلم».

تحبّوه، وأنا أعينكم عليه وأقبح فعله عنده؛ ووعد من نفسه بكلّ جميل، فاجتمع الرسول بصاحب الحصن، وتردّد القول بينهم، فاستقرّ أن صاحب الحصن يخرج المغنيّة عنه بعد سنة، وإن كان لا يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته، ويكون هو وقلج أرسلان عليه، واصطلحوا على ذلك، وعاد صلاح الدين عنه إلى الشام، وعاد نور الدين إلى بلاده، فلما انقضت المدة أخرج نور الدين المغنية عنه، فتوجهت إلى بغداد، وأقامت بها إلى أن ماتت[1].

ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون[2] الأرمنيّ

وفيها قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمني بعد فراغه من أمر قلج أرسلان، وسبب ذلك أنّ ابن ليون الأرمنيّ كان قد استمال قوماً من التركمان وبذل لهم الأمان، فأمرهم أن يرعوا مواشيهم في بلاده، وهي بلاد حصينة كلّها حصون منيعة، والدخول إليها صعب، لأنها مضايق وجبال وعرة، ثم غدر بهم وسبى[3] حريمهم، وأخذ أموالهم، وأسر رجالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله.

ونزل صلاح الدين على النهر الأسود، وبثّ الغارات على بلاده، فخاف ابن ليون على حصنٍ له على رأس جبل أن يؤخذ فخرّبه وأحرقه، فسمع صلاح الدين بذلك، فأسرع السير إليه، فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات، فغنمها، وانتفع المسلمون بما غنموه، فأرسل ابن ليون يبذل إطلاق من عنده من الأسرى والسبي وإعادة أموالهم على أن يعودوا عن بلاده، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك واستقرّ الحال، وأطلق الأسرى وأعيدت أموالهم، وعاد صلاح الدين عنه في جمادى الآخرة[4].

---

(١) النوادر السلطانية ٥٤، مضمار الحقائق ١٨ ـ ١٩، تاريخ الزمان ١٩٦، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٢، العبر ٤/ ٢٢٧، دول الإسلام ٢/ ٨٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٦) ص ٣٧ ـ ٣٨، سنا البرق الشامي ١/ ٣٤٤، الروضتين ٢/ ١٦، مفرّج الكروب ٢/ ٩٨ ـ ٩٩، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٩٦، مرآة الزمان ٨/ ٣٦٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٠، مرآة الجنان ٣/ ٤٠٢، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٥، شفاء القلوب ٩٧، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٠ ـ ٧١، عقد الجمان ١٢/ ورقة ٢١٧ ب، ٢١٨ أ، تاريخ ابن سباط ١/ ١٥٧، شذرات الذهب ٤/ ٢٥٤.

(٢) في (أ): «لاون».

(٣) في الأوربية: «وسبا».

(٤) انظر مصادر الخبر السابق.

ذكر مُلك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قَفْصَة بعد خلاف صاحبها عليه

في هذه السنة سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى إفريقية، وملك قَفْصَة.

وكان سبب ذلك أن صاحبها عليّ بن المعز بن المعتزّ لما رأى دخول الترك إلى إفريقية واستيلاءهم على بعضها، وانقياد العرب إليهم، طمع أيضاً في الاستبداد والانفراد عن يوسف وكان في طاعته، فأظهر ما في نفسه وخالفه وأظهر العصيان، ووافقه أهل قَفْصة، فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين أصحاب أبي يعقوب، وكان ذلك في شوّال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، فأرسل والي بجاية إلى يوسف بن عبد المؤمن يخبره باضطّراب أمور البلاد، واجتماع كثير من العرب إلى قراقوش التركيّ الذي دخل إلى إفريقية، وقد تقدم ذكر ذلك وما جرى في قفصة من قتل الموحّدين، ومساعدة أهل قفصة صاحبهم على ذلك، فشرع في سدّ الثغور التي يخافها بعد مسيره، فلما فرغ من جميع ذلك تجهز العسكر وسار إلى إفريقية سنة خمسٍ وسبعين، ونزل على مدينة قَفْصة وحصرها ثلاثة أشهر، وهي بلدة[1] حصينة، وأهلها أنجادٌ، وقطع شجرها.

فلما اشتدّ الأمر على صاحبها وأهلها، خرج منها مستخفياً لم يعرف به أحدٌ من أهل قفصة ولا من عسكره، وسار إلى خيمة يوسف، وعرّف حاجبه أنه قد حضر إلى أمير المؤمنين يوسف، فدخل الحاجب وأعلم يوسف بوصول صاحب قفصة إلى باب خيمته، فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد، وأمر بإدخاله عليه، فدخل وقبّل يده، وقال: قد حضرتُ أطلب عفو أمير المؤمنين عني وعن أهل بلدي، وأن يفعل ما هو أهله؛ واعتذر، فرق له يوسف فعفا[2] عنه وعن أهل البلد، وتسلّم المدينة أول سنة ستّ وسبعين وسيّر عليّ بن المعزّ صاحبها إلى بلاد المغرب، فكان فيها مكرّماً عزيزاً، وأقطعه ولاية كبيرة، ورتّب يوسف لقفصة طائفة من أصحابه الموحّدين، وحضر مسعود بن زمام أمير العرب عند يوسف أيضاً، فعفا عنه وسيّره إلى مُرّاكِش، وسار يوسف إلى المهديّة، فأتاه بها رسول ملك الفرنج، صاحب صَقَلّيّة،

---

(١) في الأوربية: «بلد».

(٢) في الأوربية: «فعفى».

يلتمس منه الصلح، فهادنه عشر سنين، وكانت بلاد إفريقية مُجدِبة[1] فتعذّر على العسكر القُوت وعلف الدوابّ، فسار إلى المغرب مسرعاً، والله أعلم[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة تُوفي شمس الدولة تورانشاه بن أيّوب[3]، أخو صلاح الدين الأكبر، بالإسكندرية، وكان قد أخذها من أخيه إقطاعاً، فأقام بها فتُوفي، وكان له أكثر بلاد اليمن، ونوّابه هنالك يحملون إليه الأموال من زَبيد، وعدن، وما بينهما من البلاد والمعاقل؛ وكان أجود الناس وأسخاهم كفّاً يُخرج كلّ ما يحمل إليه من أموال اليمن، ودخل الإسكندرية، وحُكمه في بلاد أخيه صلاح الدين وأمواله نافذ، ومع هذا، فلما مات كان عليه نحو مائتي ألف دينار مصريّة ديناً، فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما دخل إلى مصر، فإنه لما بلغه خبر وفاته سار إلى مصر في شعبان من السنة، واستخلف بالشام عز الدين فَرُّخشاه ابن أخيه شاهنشاه، وكان عاقلاً حازماً شجاعاً.

[الوفيات]

وفيها تُوفي الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الأصفهانيّ بالإسكندرية، وكان حافظ الحديث وعالماً به سافر في طلب الكثير.

وتوفي أيضاً في المحرم عليُّ بن عبد الرحيم المعروف بابن العصار اللُّغَوي ببغداد، وسمع الحديث وكان من أصحاب ابن الجواليقيّ.

---

(١) في الأوربية: «مجذبة».

(٢) نهاية الأرب ٢٤/٣٢٥ ـ ٣٢٦، تاريخ ابن خلدون ٦/١٦٦، الاستقصا ٢/١٣٦.

(٣) انظر عن (توران شاه بن أيوب) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٧٦ هـ) ص ٢٠٨ وتاريخ ابن سباط ١/١٥٨ وفيهما حشدت مصادر ترجمته.

٥٧٧
ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

ذكر غَزاة إلى بلد الكرك من الشام

في هذه السنة سار فَرُّخشاه نائب صلاح الدين بدمشق إلى أعمال كرك ونهبها.

وسبب ذلك أن البرنْس أرناط[1]، صاحب الكَرَك، كان من شياطين الفرنج ومردتهم، وأشدّهم عداوةً للمسلمين، فتجهّز، وجمع عسكره ومن أمكنه الجمع، وعزم على المسير في البرّ إلى تَيْماء، ومنها إلى مدينة النبيّ ﷺ، للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة، فسمع عز الدين فَرُّخشاه ذلك، فجمع العساكر الدمشقيّة وسار إلى بلده ونهبه وخرّبه، وعاد إلى طرف بلادهم، وأقام بها ليمنع البرنس من بلاد الإسلام، فامتنع بسببه من مقصده؛ فلما طال مُقام كلّ واحدٍ منهما في مقابلة الآخر علم البرنس أن المسلمين لا يعودون حتى يفرّق جمعه، ففرّقهم وانقطع طمعه من الحركة، فعاد فَرُّخشاه إلى دمشق، وكفى الله المؤمنين شرّ الكفّار[2].

ذكر تلبيس ينبغي أن يحتاط من مثله

كان سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ الكناني ينوب عن شمس الدولة أخي صلاح الدين باليمن وتحكم في الأموال والبلاد بعد أن فارقها شمس الدولة، كما ذكرنا، وكان هواه بالشام لأنه وطنه، فأرسل إلى شمس الدولة يطلب الإذن له في المجيء إليه، فأذن له في المجيء، فاستناب بزبيد أخاه حِطان بن كامل بن مُنقذ الكِناني، وعاد إلى شمس الدولة، وكان معه بمصر، فمات شمس الدولة، وبقي مع

---

(١) في (أ) و(ب): «أرباط».

(٢) الأعلاق الخطيرة ٢/ ٧٠ ـ ٧١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٧ هـ) ص ٤٢، دول الإسلام ٢/ ٨٩، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٩، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٢، تاريخ ابن سباط ١/ ١٥٨ ـ ١٥٩.

صلاح الدين فقيل عنه: إنه أخذ أموال اليمن وادّخرها، وسعى به أعداؤه، فلم يعارضه صلاح الدين.

فلما كان هذه السنة وصلاح الدين بمصر اصطنع سيف الدولة طعاماً وعمل دعوة كبيرة، ودعا[1] إليها أعيان الدولة الصلاحية بقرية تسمّى العدوية، وأرسل أصحابه يتجهّزون من البلد، ويشترون ما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها، فقيل لصلاح الدين إن ابن منقذ يريد الهرب، وأصحابه يتزوّدون له، ومتى دخل اليمن أخرجه عن طاعتك؛ فأرسل صلاح الدين فأخذه والناس عنده وحبسه، فلما سمع صلاح الدين جليّة الحال علم أن الحيلة تمّت لأعدائه في قبضه، فخفّف[2] ما كان عنده عليه، وسهّل أمره وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية، سوى ما لحقها من الحمل لإخوة صلاح الدين وأصحابه وأطلقه وأعاده إلى منزلته، وكان أديباً شاعراً.

ذكر إرسال صلاح الدين العساكر إلى اليمن

في هذه السنة سير صلاح الدين جماعة من أمرائه منهم صارم الدين قُتْلُغ[3] أبَه، والي مصر، إلى اليمن، للاختلاف الواقع بها بين نواب أخيه شمس الدولة، وهم عز الدين عثمان بن الزنجيلي، والي عدن، وحطان بن منقذ [والي][4] زبيد وغيرهما، فإنهم لما بلغهم وفاة صاحبهم اختلفوا وجرت بين عزّ الدين عثمان وبين حِطّان حرب، وكلّ واحد منهما يروم أن يغلب الآخر على ما بيده، واشتدّ الأمر، فخاف صلاح الدين أن يطمع أهل البلاد فيها بسبب الاختلاف بين أصحابه وأن يخرجوهم من البلاد، فأرسل هؤلاء الأمراء إليها، واستولى قُتْلُغ أبَه على زبيد وأزال حِطّان عنها.

ثم مات قُتلُغ أبَه، فعاد حِطّان إلى إمارة زبيد، وأطاعه الناس لجوده وشجاعته[5].

---

(١) في الأوربية: «ودعى».

(٢) في الأوربية: «فخفف».

(٣) في (ب): «صارم الدين إبراهيم بن حمزة قتلغ».

(٤) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٥) مضمار الحقائق ٦٦، الدر المطلوب ٧١، المختصر في أخبار البشر ٣/٦٣، تاريخ ابن الوردي ٢/٩٠، مآثر الإنافة ٢/٦٨، تاريخ ابن سباط ١/١٥٩.

[ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمّه عز الدين مسعود مدينة حلب[1]

في هذه السنة في رجب، تُوفي الملك الصالح إسماعيل[2] بن نور الدين محمود صاحب حلب بها، وعمره نحو تسع عشرة سنة، ولما اشتدّ مرضه وصف له الأطبّاء شرب الخمر للتداوي، فقال: لا أفعل حتى أستفتي الفقهاء؛ فاستفتى، فأفتاه فقيه من مدرّسي الحنفية بجواز ذلك، فقال له: أرأيت إن قدّر الله تعالى بقُرب[3] الأجل أيؤخّره شرب الخمر؟ فقال [له][4] الفقيه: لا! فقال: والله لا لقيتُ الله سبحانه وقد استعملت ما حرّمه علي؛ ولم يشربها.

فلما أيس من نفسه، أحضر الأمراء، وسائر الأجناد، ووصّاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عزّ الدين مسعود بن مودود بن زنكي، واستحلفهم على ذلك، فقال له بعضهم: إن عماد [الدين] ابن عمك أيضاً، وهو زوج أختك، وكان والدك يحبّه ويؤثره، وهو تولى تربيته، وليس له غير سِنْجار، فلو أعطيته البلد لكان أصلح، وعز الدين له [من البلاد][5] من الفرات إلى هَمَذان، ولا حاجة به إلى بلدك؛ فقال له: إن هذا لم يغب عنّي، ولكن قد علمتم أن صلاح الدين قد تغلّب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي، ومتى سلّمتُ حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها وإن[6] ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام، وإن[7] سلّمتها إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده.

فاستحسنوا قوله وعجبوا من جودة فطنته[8] مع شدّة مرضه وصِغر سنّه.

ثم مات، وكان حليماً[9] كريماً، عفيف اليد والفَرْج واللّسان، ملازماً للدين، لا

---

(١) العنوان والخبر بكامله ورد في النسخة الباريسية والنسخة قم ٧٤٠.

(٢) انظر عن (الملك الصالح إسماعيل) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٧٧ هـ) وتاريخ ابن سباط ١/١٥٩ وفيهما حشدت مصادر ترجمته.

(٣) في الأوربية: «يقرب».

(٤) من النسخة رقم ٧٤٠.

(٥) من النسخة رقم ٧٤٠.

(٦) في النسخة رقم ٧٤٠ «ومتى».

(٧) في النسخة رقم ٧٤٠ «ومتى».

(٨) في النسخة رقم ٧٤٠ «رأيه».

(٩) في النسخة رقم ٧٤٠ «جواداً».

يُعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب من شُرب خمرٍ أو غيره، حسن السيرة في رعيته عادلاً فيهم.

ولما قضى[1] نحبه أرسل الأمراء إلى أتابك عز الدين يستدعونه إلى حلب، فسار هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات، وأرسل فأحضر الأمراء عنده من حلب، فحضروا، وساروا جميعاً إلى حلب، ودخلها في العشرين من شعبان، وكان صلاح الدين حينئذٍ بمصر، ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم، فلمّا اجتاز في طريقه إليها من الفرات كان تقيّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين بمدينة مَنبج، فسار عنها هارباً[2] إلى حماة، وثار أهل حماة، ونادوا بشعار عز الدين، فأشار عسكر حلب على عزّ الدين بقصد دمشق، وأطمعوه فيها وفي غيرها من بلاد الشام، وأعلموه محبة أهلها له ولأهل بيته، فلم يفعل، وقال: بيننا يمين فلا نغدر به؛ وأقام بحلب عدّة شهور، ثم سار عنها إلى الرَّقة][3].

ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سِنجار عوضاً عنها

لما وصل عز الدين الرَّقة جاءته رسل أخيه عماد الدين، صاحب سنجار، يطلب أن يسلّم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها مدينة سِنجار، فلم يُجبه إلى ذلك؛ ولجّ عماد الدين، وقال: إن سلّمتم[4] إليّ حلب، وإلا سلّمتُ أنا سِنجار إلى صلاح الدين؛ فأشار حينئذٍ جماعة من الأمراء بتسليمها إليه، وكان أشدّهم في ذلك مجاهد الدين قايماز، فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكّنه في الدولة، وكثرة عساكره وبلاده، وإنما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عز الدين، لأنه عظم في نفسه، وكثُر معه العسكر.

وكان الأمراء الحلبيّون لا يلتفتون إلى مجاهد الدين، ولا يسلكون معه من الأدب ما يفعله عسكر الموصل، فاستقرّ الأمر على تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سِنجار عوضاً

---

(١) في الأوربية: «قضا».
(٢) في النسخة رقم ٧٤٠ «مقارناً».
(٣) إلى هنا ينتهي الخبر في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.
(٤) في الأوربية: «سلتم».

عنها، فسار عماد الدين فتسلّمها[1]، وسلّم سنجار إلى أخيه[2]، وعاد إلى الموصل.

وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر مُلك عز الدين حلب، فعظُم الأمر عليه، وخاف أن يسير منها إلى دمشق وغيرها، ويملك الجميع، وأيس من حلب[3]، فلما بلغه خبر مُلك عماد الدين لها برز من يومه وسار إلى الشام، وكان من الوهن على دولة عز الدين ما نذكره إن شاء الله[4].

ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومصير صاحبها مع صلاح الدين

كانت قلعة البيرة، وهي مطلّة على الفرات[5] من أرض الجزيرة، لشهاب الدين الأرتقي، وهو ابن عم قُطْب الدين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الشام، فمات شهاب الدين وملك القلعة بعده ولده[6] وصار في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل.

فلما كان هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عز الدين يطلب منه أن يأذن له في حصر البيرة وأخذها، فأذِن له في ذلك، فسار في عسكره إلى قلعة سُمَيْساط، وهي له، ونزل بها وسيّر العسكر إلى البيرة، فحصرها، فلم يظفر منها بطائل، إلا أنهم لازموا الحصار؛ فأرسل صاحبها إلى صلاح الدين وقد خرج من ديار مصر، على ما نذكره، يطلب منه أن ينجده ويرحل العسكر الماردينى عنه، ويكون هو في خدمته، كما كان أبوه في خدمة نور الدين، فأجابه إلى ذلك، وأرسل رسولاً إلى صاحب ماردين يشفع فيه، ويطلب أن يرحل عسكره عنه، فلم يقبل شفاعته.

واشتغل صلاح الدين بما نذكره من الفرنج، فلما رأى صاحب ماردين طول مُقام

---

(١) في (أ): «فسار عماد الدين إلى حلب».

(٢) في (ب): «إلى ابن أخيه». وزاد في (أ): «عز الدين».

(٣) في (أ): «الموصل».

(٤) مرآة الزمان ج ٨ ق ٣٦٧/١، زبدة الحلب ٥٦/٣ ـ ٥٧، المغرب في حلى المغرب ١٤٨ ـ ١٤٩، المختصر في أخبار البشر ٦٣/٣، السلوك ج ١ ق ٧٧/١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٧ هـ) ص ٤٣، النوادر السلطانية ٥٥ ـ ٥٦.

(٥) في الأوربية: «الفراة».

(٦) في الأصل: «اسمه»، والتصحيح من النسخة رقم ٧٤٠.

عسكره على البيرة، ولم يبلغوا منها غرضاً، أمرهم بالرحيل عنها، وعاد إلى ماردين، فسار صاحبها إلى صلاح الدين، وكان معه حتى عبر معه الفرات[١]، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة كثُرت المنكرات ببغداد فأقام حاجب الباب جماعة لإراقة الخمور، وأخذ المفسدات، فبينما امرأة منهنّ في موضع، علمت بمجيء أصحاب حاجب الباب، فاضطّجعت، وأظهرت أنها مريضة، وارتفع أنينها، فرأوها على تلك الحال، فتركوها وانصرفوا، فاجتهدت بعدهم أن تقوم، فلم تقدر، وجعلت[٢] تصيح: الكرب الكرب، إلى أن ماتت. وهذا من أعجب ما يُحْكَى.

[الوفيات]

وفيها، عاشر ذي الحجّة، تُوفي الأمير هُمام الدين تتر[٣]، صاحب قلعة تكريت بالمُزدلفة، كان قد استخلف الأمير عيسى ابن أخي مودود وحجّ، فتُوفي، ودُفن بالمُعَلَّى مقبرة مكة.

وفيها، في شعبان، تُوفي عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد أبو البركات النحوي المعروف بابن الأنباري[٤] ببغداد، وله تصانيف حَسَنة في النحْو، وكان فقيهاً صالحاً.

وفيها توفي إبراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعي بجزيرة ابن عمر، وكان فاضلاً كثير الورع.

---

(١) في الأوربية: «الفراة».

(٢) في الأوربية: «وحملت».

(٣) في النسخة رقم ٧٤٠ «سر».

(٤) انظر عن (ابن الأنباري) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٧٧ هـ) وتاريخ ابن سباط ١/١٦٠ وفيهما حشدت مصادر ترجمته.

٥٧٨
ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

ذكر مسير صلاح الدين إلى الشام وإغارته على الفرنج

في هذه السنة، خامس المحرّم سار صلاح الدين عن مصر إلى الشام؛ ومن عجيب ما يُحْكى من التطيّر أنه لما برز من القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر والناس عنده، وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب، فمن بين مودّعٍ له وسائرٍ معه، وكلّ منهم يقول شيئاً في الوداع والفراق، وما هم بصدده من السفر، وفي الحاضرين معلّم لبعض أولاده، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تَمَتّعْ من شَميمِ عَرارِ نَجدٍ ... فَما بعدَ العشيّةِ من عَرارِ[1]

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطيّر، وتنكّد المجلس على الحاضرين، فلم يَعُد إليها إلى أن مات مع طول المدّة.

ثم سار عن مصر وتبعه من التجار وأهل البلاد، ومن كان قصد مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره، عالم كثير، فلما سار جعل طريقه على أيْلَة فسمع أن الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدّوه عن المسير، فلما قارب بلادهم سيّر الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق، وبقي هو في العساكر المقاتلة لا غير، فشنّ الغارات بأطرف بلادهم، وأكثر ذلك ببلد الكرَك والشّوبك، فلم يخرج إليه منهم أحد، ولا أقدم[2] على الدُنُوّ منه، ثم سار فأتى دمشق، فوصلها حادي عشر صفر من السنة[3].

---

(١) البيت للصمّة بن عبد الله القشيري المتوفى سنة ٩٥ هـ. وهو في ديوان الحماسة، بشرح المرزوقي ١٢٤٠، وزهر الأداب للحصري ٦٨٥، ولسان العرب لابن منظور ٤/ ٥٦٠، وغيره.

(٢) في الأوربية: «قدم».

(٣) النوادر السلطانية ٥٤، التاريخ الباهر ١٨٣، تاريخ الزمان ١٩٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٣ =

ذكر مُلك المسلمين شقيفاً من الفرنج

في هذه السنة أيضاً، في صفر، فتح المسلمون بالشام شقيفاً من الفرنج، يُعرف بحبس جلدك[1]، وهو من أعمال طبريّة، مُطِلّ على السواد.

وسبب فتحه أن الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام جمعوا له، وحشدوا الفارس والراجل، واجتمعوا بالكَرَك، بالقرب من الطريق، لعلّهم ينتهزون فرصةً، أو يظفرون بنصرة[2]، وربّما عاقوا المسلمين عن المسير بأن يقفوا على بعض المضايق؛ فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام، فسمع فَرُّخْشاه الخبر، فجمع من عنده من عساكر الشام، ثم قصد بلاد الفرنج وأغار عليها، ونهب دبورية وما يجاورها من القرى، وأسر الرجال وقتل فيهم وأكثر وسبَى النساء، وغنم الأموال، وفتح منهم الشقيف، وكان على المسلمين منه أذًى شديد، ففرح المسلمون بفتحه فرحاً عظيماً، وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة، فلقِيه في الطريق، ففتّ ذلك في عضُد الفرنج، وانكسرت شوكتهم[3].

ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن وتغلّبه عليه

في هذه السنة سيّر صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طُغدُكين إلى بلاد اليمن، وأمره بتملّكها وقطع الفِتَن بها، وفوّض إليه أمرها، وكان بها حِطّان بن منقذ، كما ذكرناه قبلُ. وكتب عز الدين عثمان الزنجيلي متولي عدن إلى صلاح الدين يعرّفه باختلال البلاد، ويشير بإرسال بعض أهله إليها، لأن حطان كان قوي عليه، فخافه عثمان، فجهّز صلاح الدين أخاه سيف الإسلام وسيّره إلى بلاد اليمن، فوصل إلى

= ـ ٦٤، زبدة الحلب ٣/ ٥٥ ـ ٥٦، مضمار الحقائق ٣٠ و٩٣ ـ ٩٦، الدر المطلوب ٧١، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٦٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٨ هـ) ص ٤٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩١، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٠، العسجد المسبوك ٢/ ١٨٦، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٧، شفاء القلوب ٩٨ ـ ٩٩، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٠.

(١) في طبعة صادر ١١/ ٤٧٩ «حبس»، والتصويب من (أ) والمصادر. وفي (ب): «بحس خلدك».

(٢) في (أ): «بمصره».

(٣) مضمار الحقائق ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩١، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٩٧، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٠، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٧، شفاء القلوب ٩٩، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦١.

زبيد، فخافه حِطّان بن منقذ واستشعر منه، وتحصّن في بعض القلاع، فلم يزل به سيف الإسلام يؤمّنه ويُهدي إليه ويتلطّفه حتى نزل إليه، فأحسن صُحبته، واعتمد معه ما لم يكن يتوقعه من الإحسان؛ فلم يثق حِطّان به، وطلب منه دستوراً ليقصد الشام، فامتنع من إجابته إظهاراً للرغبة في كونه عنده، فلم يزل حِطان يراجعه حتى أذِن له، فأخرج أثقاله، وأمواله، ودوابه، وأهله، وأصحابه، وكلّ ما له، وسيّر الجميع بين يديه.

فلما كان الغد دخل على سيف الإسلام ليودّعه، فقبض عليه واسترجع جميع ماله فأخذه عن آخره لم يسلم منه قليل ولا كثير، ثم سجنه في بعض القلاع، وكان آخر العهد به، فقيل إنه قتله، وكان في جملة ما أخذ منه من الأموال الذّهب العين في سبعين غلافاً[1] زرديّة مملوءة عيناً.

وأما عز الدين عثمان الزنجيليّ فإنه لما سمع ما جرى على حِطّان خاف فسار نحو الشام خائفاً يترقّب، وسيّر معظم أمواله في البحر، فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الإسلام، فأخذوا كل ما لعز الدين، ولم يبق له إلا ما صَحِبه في الطريق، وصفَت زبيد وعدن وما معهما من البلاد لسيف الإسلام[2].

ذكر إغارة صلاح الدين على الغَور وغيره من بلاد الفرنج

لما وصل صلاح الدين إلى دمشق، كما ذكرناه، أقام أياماً يُريح ويستريح هو وجُنده، ثم سار إلى بلاد الفرنج في ربيع الأول، فقصد طبرية، فنزل بالقرب منها، وخيّم في الأقحوانة من الأردن، وجاءت الفرنج بجموعها فنزلت بطبرية، فسيّر صلاح الدين فَرُّخْشاه ابن أخيه إلى بَيسان، فدخلها قهراً، وغنم ما فيها، وقتل وسبى، وجحف الغَور غارةً شعواء، فعمّ أهله قتلاً وأسراً، وجاءت العرب فأغارت على جينين واللّجون وتلك الولاية، حتى قاربوا مرج عكّا.

وسار الفرنج من طبريّة، فنزلوا تحت جبل كوكب، فتقدم صلاح الدين إليهم،

---

(١) في الأوربية: «غلاف».

(٢) مرآة الزمان ج ٨ ق ٣٦٨/١، مفرّج الكروب ١٠٤/٢ ـ ١٠٥، تاريخ مختصر الدول ٢١٨، مضمار الحقائق ٦٦، الدر المطلوب ٧٠ (حوادث ٥٧٧هـ) و٧٣ (حوادث ٥٧٨ هـ) المختصر في أخبار البشر ٦٤/٣، العسجد المسبوك ١٨٦/٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٨ هـ) ص ٤٦، العبر ٢٣٢/٤ ـ ٢٣٣، مرآة الجنان ٤٠٩/٣، النجوم الزاهرة ٩١/٦.

وأرسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشّاب، فلم يبرحوا، ولم يتحركوا لقتال، فأمر ابنَيْ أخيه تقيّ الدين عمر وعزّ الدين فَرُّخشاه، فحملا على الفرنج فيمن معهما، فقاتلوا قتالاً شديداً، ثمّ إن الفرنج انحازوا على حاميتهم[1]، فنزلوا غفربلا[2]؛ فلما رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم إلى دمشق[3].

ذكر حصر بيروت

ثم إنه سار عن دمشق إلى بيروت، فنهب بلدها، وكان قد أمر الأسطول المصري بالمجيء في البحر إليها، فساروا ونازلوها، وأغاروا عليها وعلى بلدها، وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب ما لم يصل الأسطول إليه، وحصرها عدّة أيام. وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها، فأتاه الخبر وهو عليها أن البحر قد ألقى بُطسة للفرنج فيها جمع عظيم منهم إلى دِمياط، كانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدّس، فأسروا من بها إلى أن غرق منهم كثير فكان عدّة الأسرى ألفاً وستّمائة وستة[4] وسبعين أسيراً، فضُربت بذلك البشائر[5].

ذكر عبور صلاح الدين الفرات[6] ومُلكه ديار الجزيرة

في هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات إلى الديار الجزرية[7] وملكها.

---

(١) في النسخة رقم ٧٤٠ «حامتهم».

(٢) هكذا في الأصل وطبعة صادر والأوربية. وفي الباريسية: «عقربلا»، وفي النسخة رقم ٧٤٠ «عفربلا».

(٣) مضمار الحقائق ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩١، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٩٧، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٠، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٧، شفاء القلوب ٩٩، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦١.

(٤) في الأوربية: «وست».

(٥) النوادر السلطانية ٥٦، مفرّج الكروب ٢/ ١١٥، التاريخ الباهر ١٨٢، تاريخ مختصر الدول ٢١٨، تاريخ الزمان ١٩٨، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/ ١٠٧، زبدة الحلب ٣/ ٥٦، مضمار الحقائق ٩٥، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٤، دول الإسلام ٢/ ٨٩، العبر ٤/ ٢٣٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩١، مرآة الجنان ٣/ ٤٠٩، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٠ ـ ٣١١، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٩٧، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٨، العسجد المسبوك ٢/ ١٨٦، المغرب في حلى المغرب ١٤٨، شفاء القلوب ٩٩، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٢.

(٦) في الأوربية: «الفراة».

(٧) في الأوربية: «الجرزية».

وسبب ذلك أن مظفّر الدين كوكبري بن زين الدين عليّ بن بُكْتُكين[1]، وهو مقطع حَرّان كان قد أقطعه إياها عز الدين أتابك، المدينة والقلعة، ثقةً به واعتماداً عليه، أرسل إلى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يُعلمه أنه معه مُحِبّ لدولته، ووعده النصرة له إذا عبر الفرات[2]، ويُطْمعه في البلاد ويحثّه على الوصول إليها، فسار صلاح الدين عن بيروت، ورُسُل مظفر الدين تترى إليه يحثّه على المجيء، فجدّ صلاح الدين السير مظهراً أنه يريد حصر حلب ستراً للحال.

فلما قارب الفرات[3] سار إليه مظفر الدين فعبر الفرات واجتمع به وعاد معه فقصد البيرة، وهي قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزريّ، وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين، وفي طاعته، وقد ذكرنا سبب ذلك قبلُ، فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذي عند البيرة.

وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أُهْبَة واجتماع لئلا يتعرّض صلاح الدين إلى حلب، ثم تقدّما إلى دارا، فنزلا عندها، فجاءهما أمر لم يكن في الحساب، فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا إلى الموصل وأرسلا إلى الرُّها عسكراً يحميها ويمنعها، فلما سمع صلاح الدين ذلك قوي طمعه في البلاد؛ ولما عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك أصحاب الأطراف ووعدهم، وبذل لهم البذول على نصرته، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان، صاحب الحصن، إلى ما طلب منه، لقاعدة كانت استقرّت بينهما لما كان نور الدين عنده بالشام، فإنه استقرّ الحال أن صلاح الدين يحصر آمد ويملكها، ويسلّمها إليه.

وسار صلاح الدين إلى مدينة الرُّها، فحصرها، في جُمادى الأولى، وقاتلها أشدّ قتال. فحدّثني بعض من كان بها من الجُند أنه عد في غلاف رمح أربعة عشر خرقاً وقد خرقته السهام.

ووالى الزحف عليها، وكان بها حينئذٍ مقطعها، وهو الأمير فخر الدين مسعود

---

(١) في (أ): «بلتكين».

(٢) في الأوربية: «الفراة».

(٣) في الأوربية: «الفراة».

ابن الزعفراني، فحيث رأى شدّة القتال أذعن إلى التسليم، وطلب الأمان وسلم البلد، وصار في خدمة صلاح الدين، فلما ملك المدينة زحف إلى القلعة، فسلّمها إليه الدّزدار الذي بها على مالٍ أخذه، فلما ملكها سلمها إلى مظفر الدين مع حران، ثم سار عنها، على حران، إلى الرَّقّة، فلما وصل إليها كان بها مقطعها قُطْب الدين ينال بن حسّان المنبِجي، فسار عنها إلى عز الدين أتابك، وملكها صلاح الدين، وسار إلى الخابور، قرقيسيا، وماكسِين وعُرايان، فملك جميع ذلك.

فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين، فملك المدينة لوقتها، وبقيت القلعة، فحصرها عدّة أيام، فملكها أيضاً، وأقام بها ليصلح شأنها، ثم أقطعها أميراً كان معه يقال له أبو الهَيجاء السمين، وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن.

وأتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق، ونهبوا القرى، ووصلوا إلى داريا، وأرادوا تخريب جامعها، فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصارى يقول لهم: إذا خرّبتم الجامع جدّدنا عمارته، وخرّبنا كل بيعة لكم في بلادنا، ولا نمكّن أحداً من عمارتها؛ فتركوه. ولما وصل الخبر إلى صلاح الدين بذلك أشار عليه من يتعصب لعز الدين بالعود، فقال: يُخرّبون قُرًى ونملك عِوَضها بلاداً، ونعود نعمرها، ونقوى على قصد بلادهم؛ ولم يرجع، فكان كما قال[1].

ذكر حصر صلاح الدين الموصل

لما ملك صلاح الدين نصيبين، جمع أمراءه وأرباب المشورة عنده، واستشارهم بأي البلاد يبدأ، وأيها يقصد، بالموصل أم بسنجار أم بجزيرة ابن عمر، فاختلفت آراؤهم، فقال له مظفّر الدين كوكبري بن زين الدين: لا ينبغي أن يُبدأ بغير الموصل، فإنها في أيدينا لا مانع لها، فإن عز الدين ومجاهد الدين متى سمعا بمسيرنا إليها

---

(١) التاريخ الباهر ١٨٢، النوادر السلطانية ٥٦، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/ ١٠٧، زبدة الحلب ٣/ ٥٧، مفرّج الكروب ٢/ ١١٦ ـ ١١٧، تاريخ مختصر الدول ٢١٨، تاريخ الزمان ١٩٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٤، مضمار الحقائق ٩٦، المغرب ١٤٨، دول الإسلام ٢/ ٨٩، العبر ٤/ ٢٣٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩١، مرآة الجنان ٣/ ٤٠٩، البداية والنهاية ١/ ٣١٠، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٩٧، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٨، شفاء القلوب ٩٩ ـ ١٠٠، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٢.

تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبليّة.

ووافقه ناصر الدين محمد بن عمه شيركوه، وكان قد بذل لصلاح الدين مالاً كثيراً ليقطعه الموصل إذا ملكها، وقد أجابه صلاح الدين إلى ذلك، فأشار بهذا الرأي لهواه، فسار صلاح الدين إلى الموصل، وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل، وأظهرا من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار، وبذلا الأموال الكثيرة، وأخرج مجاهد الدين من ماله كثيراً، واصطلى الأمور بنفسه، فأحسن تدبيرها، وشحنوا ما بقي بأيديهم من البلاد، كالجزيرة وسِنجار وإربل وغيرها من البلاد، بالرجال والسلاح والأموال.

وسار صلاح الدين حتى قارب الموصل وترك عسكره، وانفرد هو ومظفّر الدين وابن عمه ناصر الدين بن شيركوه، ومعهما نفر من أعيان دولته، وقربوا من البلد، فلما قربوا رآه وحققه، فرأى ما هاله وملأ صدره وصدور أصحابه، فإنه رأى بلداً عظيماً كبيراً، ورأى السور والفصيل قد مُلئا من الرجال، وليس فيه شُرّافة إلا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرّجين؛ فلما رأى ذلك علم أنه لا يقدر على أخذه، وأنه يعود خائباً، فقال لناصر الدين ابن عمه: إذا رجعنا إلى المعسكر فاحمل ما بذلت من المال فنحن معك على القول. فقال ناصر الدين: قد رجعتُ عما بذلت من المال، فإن هذا البلد لا يرام. فقال له ولمظفر الدين: غررتُماني وأطمعتُماني في غير مطمع، ولو قصدتُ غيره قبله لكان أسهل أخذاً بالاسم والهيبة التي حصلت لنا، ومتى نازلناه، وعُذْنا منه، ينكسر ناموسنا ويفّل حدّنا وشوكتنا.

ثم رجع إلى معسكره وصبّح البلد، وكان نزوله عليه في رجب، فنازله وضايقه، ونزل محاذي باب كِندة، وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر، وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادي، وأنشب القتال، فلم يظفر، وخرج إليه يوماً بعض العامة، فنالوا منه، ولم يُمكّن عز الدين ومجاهدالدين أحداً من العسكر [أن] يخرجوا لقتال بل أُلزموا الأسوار؛ ثم إن تقي الدين أشار على عمّه صلاح الدين بنصب منجنيق، فقال: مثل هذا البلد لا يُنصب عليه منجنيق، ومتى نصبناه أخذوه، ولو خرّبنا بُرجاً وبدنة من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير؟ فألحّ تقي الدين وقال: نجرّبهم به؛ فنصب منجنيقاً، فنُصب عليه من البلد تسعة مجانيق، وخرج جماعة من العامة فأخذوه وجرى عنده قتال كثير، فأخذ بعض العامة لالكة من رِجليه، فيها المسامير الكثيرة، ورمى بها

أميراً يقال له جاوُلي الأسديّ، مقدّم الأسديّة وكبيرهم، فأصاب صدره، فوجد لذلك ألماً شديداً، وأخذ اللالكة وعاد عن القتال إلى صلاح الدين وقال: قد قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا بعدُ مثلها؛ وألقى اللالكة، وحلف أنه لا يعود يقاتل عليها أنفةً حيث ضُرب بهذه.

ثم إن صلاح الدين رحل من قرب البلد، ونزل متأخّراً، خوفاً من البيات، فإنه لقربه كان لا يأمن ذلك؛ وكان سببه أيضاً أن مجاهد الدين أخرج في بعض الليالي جماعة من باب السر الذي للقلعة، ومعهم المشاعل، فكان أحدهم يخرج من الباب وينزل إلى دجلة، مما يلي عين الكبريت، ويُطفىء المشعل، فرأى العسكر الناس يخرجون، فلم يشكوا في الكبسة، فحملهم ذلك على الرحيل والتأخّر ليتعذّر البيات على أهل الموصل.

وكان صدر الدين شيخ الشيوخ، رحمه الله، قد وصل إليه، قبل نزوله على الموصل، ومعه بشير الخادم، وهو من خواصّ الخليفة الناصر لدين الله، في الصلح، فأقاما معه على الموصل، وتردّدت الرسل إلى عزّ الدين ومجاهد الدين في الصلح، فطلب عز الدين إعادة البلاد التي أُخذت منهم، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط أن تُسلّم إليه حلب، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين، ثم نزل عن ذلك، وأجاب إلى تسليم البلادِ بشرط أن يتركوا إنجاد صاحب حلب عليه، فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً، وقال عز الدين: هو أخي وله العهود والمواثيق ولا يسعني نكثها.

ووصلت أيضاً رُسل قَزل أرسلان صاحب أذربيجان، ورُسل شاه أرمن صاحب خِلاط، في المعنى، فلم ينتظم أمرٌ ولا تمّ صلحٌ؛ فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضاً، ولا يحصل على غير العناء والتعب، وأن من بسنجار من العساكر الموصليّة يقطعون طريق من يقصدونه من عساكره وأصحابه، سار من الموصل إليها[1].

---

(١) النوادر السلطانية ٥٧، زبدة الحلب ٣/٥٨، مضمار الحقائق ٩٨، مفرّج الكروب ٢/١١٨، التاريخ الباهر ١٨٣، تاريخ مختصر الدول ٢١٩، تاريخ الزمان ١٩٩، الدر المطلوب ٧٣، المختصر ٣/٦٥، المغرب ١٤٨، العبر ٤/٢٣٢، دول الإسلام ٢/٩٠، تاريخ ابن الوردي ٢/٩١، مرآة الجنان ٣/٤٠٩، البداية والنهاية ١٢/٣١١، العسجد المسبوك ٢/١٨٦، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٨، السلوك ج ١ ق ١/٧٨، شفاء القلوب ١٠٠، تاريخ ابن سباط ١/١٦٢.

ذكر مُلكه مدينة سنجار

لما سار صلاح الدين عن الموصل إلى سِنجار، سير مجاهد الدين إليها عسكراً قوىًّ لها ونجدةً، فسمع بهم صلاح الدين، فمنعهم من الوصول إليها، وأوقع بهم، وأخذ سلاحهم ودوابهم وسار إليها ونازلها، وكان بها شرف الدين أمير أميران هندوا أخو عز الدين، صاحب الموصل، في عسكر معه، فحصر البلد وضايقه، وألح في قتاله، فكاتبه بعض أمراء الأكراد الذين به من الزَّرْزاريّة، وخامر معه، وأشار بقصده من الناحية التي هو بها ليسلّم إليه البلد، فطرقه صلاح الدين ليلاً، فسلّم إليه ناحيته، فملك الباشورة لا غير. فلما سمع شرف الدين الخبر استكان وخضع، وطلب الأمان، فأُمّن، ولو قاتل على تلك الناحية لأخرج العسكر الصلاحيّ عنها، ولو امتنع بالقلعة لحفِظَها ومنعها، ولكنه عجز، فلما طلب الأمان أجابه صلاح الدين إليه، فأمنه وملك البلد.

وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل، واستقرّ جميع ما ملكه صلاح الدين بملك سنجار، فإنه كان قصد أن يسترده المواصلة إذا فارقه، لأنه لم يكن فيه حصن غير الرُّها، فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنز[1]، وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى[2].

ذكر عود صلاح الدين إلى حرّان

لما ملك صلاح الدين سِنجار وقرّر قواعدها سار إلى نصيبين، فلقيه أهلها شاكين من أبي الهيجاء السمين، باكين من ظُلمه، متأسّفين على دولة عز الدين وعدله فيهم، فلما سمع ذلك أنكر على أبي الهيجاء ظلمه، وعزله عنهم، وأخذه معه، وسار إلى حران، وفرق عساكره ليستريحوا، وبقي جريدة في خواصه وثقات أصحابه، وكان وصوله إليها أوائل ذي القعدة من السنة[3].

---

(١) في الباريسية: «أنر»، ويرد على الوجهين في المصادر.

(٢) النوادر السلطانية ٥٧، مفرّج الكروب ٢/١٢٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٨ هـ) ص ٤٤، تاريخ ابن سباط ١/١٦٢.

(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٨ هـ) ص ٤٤، تاريخ ابن سباط ١/١٦٢.

ذكر اجتماع عز الدين وشاه أرمن

في هذه السنة، في ذي الحجة، اجتمع أتابك عز الدين، صاحب الموصل، وشاه أرمن صاحب خِلاط، على قتال صلاح الدين.

وسبب ذلك أن رسل عز الدين تردّدت إلى شاه أرمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين، فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدّة رُسل في الشفاعة إليه بالكفّ عن الموصل وما يتعلق بعز الدين، فلم يُجبه إلى ذلك، وغالطه، فأرسل إليه أخيراً مملوكه سيف الدين بكتمر الذي ملك خِلاط بعد شاه أرمن، فأتاه وهو يحاصر سِنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها، وقال له: إنْ رحل عنها وإلا فتهدّده بقصده ومحاربته؛ فأبلغه بكتمر الشفاعة، فسوّفه في الجواب رجاء أن يفتحها، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة الثانية بالتهديد، وفارقه غضبان، ولم يقبل منه خلعة ولا صلة، وأخبر صاحبه الخبر، وخوّفه عاقبة الإهمال والتواني عن صلاح الدين، فسار شاه أرمن من خلاط، وكان مخيماً بظاهرها، وسار إلى ماردين، وصاحبها حينئذٍ قُطب الدين بن نجم الدين ألْبي[1]، وهو ابن أخت شاه أرمن، وابن خال عز الدين وحموه، لأن عز الدين كان قد زوّج ابنته[2] قُطب الدين، وحضر مع شاه أرمن دولة شاه صاحب بَدْليس وأرْزَن، وسار أتابك عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الأثقال.

وكان صلاح الدين قد ملك سِنجار، وسار عنها إلى حَرّان، وفرّق عساكره، فلما سمع باجتماعهم سيّر إلى تقيّ الدين ابن أخيه، وهو بحماة، يستدعيه، فوصل إليه مُسْرعاً، وأشار عليه بالرحيل[3] وحذّره منه آخرون، وكان هوى صلاح الدين في الرحيل، فرحل إلى رأس عينٍ، فلما سمعوا برحيله تفرّقوا، فعاد شاه أرمن إلى خِلاط، واعتذر بأنّني أجمع العساكر وأعود؛ ورجع عز الدين إلى الموصل، وأقام قُطب الدين بماردين، وسار صلاح الدين فنزل بحرزم تحت ماردين عدّة أيام[4].

---

(١) في (أ): «فخر الدين بن النبي».

(٢) في الأوربية: «ابنة».

(٣) في (ب): «بالرحيل إليهم».

(٤) النوادر السلطانية ٥٨، مضمار الحقائق ١١٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٨ هـ) ص ٤٥.

ذكر الظفر بالفرنج في بحر عيذاب

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكَرَك أسطولاً، وفرغ منه بالكَرَك، ولم يبق إلا جمْع قِطَعِهِ بعضها إلى بعض، وحملها إلى بحر أيْلَة، وجمعها في أسرع وقت.

وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة وسيّرها، فساروا في البحر، وافترقوا فرقتين: فرقة أقامت على حصن أيْلة وهو للمسلمين يحصرونه، ويمنع أهله من وُرُود الماء، فنال أهله شدّة شديدة وضيق عظيم؛ أما الفرقة الثانية فإنهم ساروا نحو عَيْذاب، وأفسدوا في السواحل، ونهبوا، وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التُّجّار، وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيّاً قَطُّ لا تاجراً ولا محارباً.

وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ينوب عن أخيه صلاح الدين، فعمر أسطولاً وسيّره، وفيه جمع كثير من المسلمين، ومقدّمهم حسام الدين لؤلؤ، وهو متولي الأسطول بديار مصر، وكان مظفراً فيه، شجاعاً، كريماً، فسار لؤلؤ مُجِداً في طلبهم، فابتدأ بالذين على أيْلة فانقضّ عليهم انقضاض العُقاب على صيدها، فقاتلهم، فقتل بعضهم، وأسر الباقي؛ وسار من وقته بعد الظفر يقصّ أثر الذين قصدوا عَيْذاب، فلم يرهم، وكانوا قد أغاروا على ما وجدوه بها، وقتلوا من لقوه عندها، وساروا إلى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه؛ وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة، حرسهما الله تعالى، وأخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام، والدخول بعد ذلك إلى اليمن.

فلما وصل لؤلؤ إلى عَيْذاب ولم يرهم سار يقفو أثرهم، فبلغ رابغ وساحل الجوزاء وغيرهما، فأدركهم بساحل الجوزاء، فأوقع بهم هناك، فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البرّ، واعتصموا ببعض تلك الشعاب[1]، فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم، وقاتلهم أشدّ قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك، فركبها، وقاتلهم فرساناً ورجّالة، فظفر بهم وقتل أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم

---

(١) في (أ): «الشعاري».

إلى مِنى لينحروا بها عقوبةً لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ، وعاد بالباقين إلى مصر، فقُتلوا جميعهم[1].

ذكر عدّة حوادث

[الوفيات]

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، تُوفّي عز الدين فَرُّخْشاه[2] ابن أخي صلاح الدين، وكان ينوب عنه بدمشق، وهو ثقته من أهله، وكان اعتماده عليه أكثر من جميع أهله وأمرائه، وكان شجاعاً، كريماً، فاضلاً، عالماً بالأدب وغيره، وله شِعر جيّد من بين أشعار الملوك.

وكان ابتداء مرضه أنه خرج من دمشق إلى غزو الفرنج، فمرض، وعاد مريضاً، فمات، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين، وقد عبر الفرات[3] إلى الديار الجزرية، فأعاد شمس الدين محمد بن المقدم إلى دمشق ليكون مقدماً على عسكرها.

وفيها مات فخر الدولة أبو المظفر الحسن[4] بن هبة الله بن المطّلب. كان أبوه وزير الخليفة، وأخوه أستاذ الدار، فتصوّف هو من زمن الصبا، وبنى مدرسة ورباطاً ببغداد عند عقد المصطنع، وبنى جامعاً بالجانب الغربيّ منها.

وفيها تُوفي الأمير أبو منصور هاشم ولد المستضيء بأمر الله ودُفن عند أبيه.

وفيها توفي أبو العباس أحمد بن علي بن الرفيعي من سواد واسط، وكان صالحاً ذا قبول عظيم عند الناس، وله من التلامذة ما لا يُحصى.

---

(١) البرق الشامي ٥/ ٧٣، مفرّج الكروب ٢/ ١٢٧ ـ ١٣٢، الروضتين ٢/ ٣٧، شفاء القلوب ١٠٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٩ هـ) ص ٤٨ ـ ٥٠، سنا البرق الشامي ٢/ ٥٤، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨، مضمار الحقائق ١٤٤ و١٤٦ ـ ١٥١، الدرّ المطلوب ٧١ ـ ٧٢، دول الإسلام ٢/ ٩٠.

(٢) انظر عن (فرّخشاه) في تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٨ هـ) ص ٤٦ وفيه مصادر ترجمته، وكذا في تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٣.

(٣) في الأوربية: «الفراة».

(٤) في طبعة صادر ١١/ ٤٩١ «فخر الدولة بن الحسن» وهو غلط، والتصويب من تاريخ الإسلام وفيات (٥٧٨ هـ) رقم الترجمة ٢٦٩ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

٥٧٩

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ذكر مُلك صلاح الدين آمِد وتسليمها إلى صاحب الحصن

قد ذكرنا نزول صلاح الدين بحَرْزَم[1]، تحت ماردين، فلم ير لطمعه وجهاً، وسار عنها إلى آمد، على طريق البارعيّة، وكان نور الدين محمد بن قُرا أرسلان يطالبه في كلّ وقتٍ بقصدها وأخذها وتسليمها إليه، على ما استقرّت القاعدة بينهما، فوصل إلى آمد سابع عشر ذي الحجة من سنة ثمان وسبعين ونازلها، وأقام يحاصرها.

وكان المتولي لأمرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نَيسان؛ وكان صاحبها ليس له من الأمر شيء مع ابن نيسان، فلما نازلها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير، ولم يُعط الناس من الذخائر شيئاً، ولا فرّق فيهم ديناراً ولا قوتاً، وقال لأهل البلد: قاتلوا عن نفوسكم. فقال له بعض أصحابه: ليس العدوّ بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم. فلم يفعل شيئاً. وقاتلهم صلاح الدين، ونصب المجانيق، وزحف إليها، وهي الغاية في الحصانة والمنعة، بها وبسورها يُضرب المثل، وابن نيسان على حاله من الشُحّ بالمال، وتصرّفُه تصرُّف من ولّت سعادته وأدبرت دولته؛ فلما رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال، وجنحوا إلى السلامة.

وكانت أيام ابن نيسان قد طالت، وثقُلت على أهل البلد لسوء صنيعهم وملكتهم وتضييقهم عليهم في مكاسبهم، فالناس كارهون لها، محبون لانقراضها. وأمر صلاح الدين أن يُكتب على السهام إلى أهل البلد يعِدهم الخير والإحسان إن أطاعوه، ويتهدّدهم إن قاتلوه، فزادهم ذلك تقاعُداً وتخاذلاً، وأحبّوا مُلكه وتركوا القتال؛ فوصل النقّابون إلى السور، فنقبوه وعلّقوه، فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك طمعوا

(١) حَرْزَم: بلد في وادٍ ذات نهر جار وبساتين بين ماردين ودنيسر من أعمال الجزيرة. وأكثر أهلها أرمن نصارى. (معجم البلدان).

في ابن نيسان واشتطوا في المطالب.

فحين صارت الحال كذلك أخرج ابن نيسان نساءه إلى القاضي الفاضل، وزير صلاح الدين، يسأله أن يأخذ له الأمان ولأهله وماله، وأن يؤخّره ثلاثة أيام حتى ينقل ما له بالبلد من الأموال والذخائر؛ فسعى له الفاضل في ذلك، فأجابه صلاح الدين إليه، فسلّم البلد في العشر الأول من المحرّم هذه السنة، وأخرج خِيمَه إلى ظاهر البلد، ورام نقل ماله، فتعذّر ذلك عليه لزوال حكمه عن أصحابه، واطراحهم أمره ونهيه، فأرسل إلى صلاح الدين يُعرّفه الحال، ويسأله مساعدته على ذلك، فأمدّه بالدواب والرجال، فنُقل البعض وسُرق البعض وانقضت الأيام الثلاثة[1] قبل الفراغ فمُنع من الباقي.

وكانت أبراج المدينة مملوءة من أنواع الذخائر، فتركها بحالها، ولو أخرج البعض منها لحفظ البلد وسائر نِعَمه وأمواله، لكن إذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه؛ فلما تسلمها صلاح الدين سلمها نور الدين إلى صاحب الحصن، فقيل له قبل تسليمها: إن هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار، فلو أخذت ذلك وأعطيته جُندَكَ وأصحابك، وسلّمتَ البلد إليه فارغاً، لكان راضياً، فإنه لا يطمع في غيره. فامتنع من ذلك، وقال: ما كنتُ لأعطيه الأصل وأبخل بالفرع؛ فلما تسلم نور الدين البلد اصطنع دعوةً عظيمة، ودعا إليها صلاح الدين وأمراءه، ولم يكن دخل البلد، وقدّم له ولأصحابه من التُحَف والهدايا أشياء كثيرة[2].

ذكر ملك صلاح الدين تلّ خالد وعين تاب من أعمال الشام

لما فرغ صلاح الدين من أمر آمِد سار إلى الشام، وقصد تلّ خالد، وهي من أعمال حلب، فحصرها، ورماها بالمنجنيق، فنزل أهلها وطلبوا الأمان فأمّنهم، وتسلّمها في المحرم أيضاً[3].

ثم سار منها إلى عين تاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد، وهو أخو الشيخ

---

(١) في الأوربية: «الثلاث».

(٢) الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/ ١٨٠ ـ ١٨١، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٥، النوادر السلطانية ٥٨.

(٣) النوادر السلطانية ٥٩، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٥.

إسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي وصاحبه، وكان قد سلّمها إليه نور الدين، فبقيت معه إلى الآن. فلما نازله صلاح الدين أرسل إليه يطلب أن يُقرّ الحصن بيده، وينزل إلى خدمته ويكون تحت حكمه وطاعته، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، وحلف له عليه، فنزل إليه، وصار في خدمته؛ وكان أيضاً في المحرّم من هذه السنة[1].

ذكر وقعتين مع الفرنج في البحر والشام

في هذه السنة، في العاشر من المحرم، سار أسطول المسلمين من مصر في البحر، فلقوا بُطسةً فيها نحو ثلاثمائة من الفرنج بالسلاح التامّ، ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل، فقاتلوهم، وصبر الفريقان، وكان الظفر للمسلمين، وأخذوا الفرنج أسرى، فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم أسرى، وغنموا ما معهم وعادوا إلى مصر سالمين.

وفيها أيضاً سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحي الداروم إلى نواحي مصر ليغيروا وينهبوا، فسمع بهم المسلمون، فخرجوا إليهم على طريق (صَدَر)[2] وأيلة، فانتزح الفرنج من بين أيديهم فنزلوا بماء يقال له العُسيلة، وسبقوا المسلمين إليه، فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله، سبحانه وتعالى، بلطفه سحابة عظيمة، فمُطروا منها حتى رووا، وكان الزمان قَيظاً، والحر شديداً[3] في برٍّ مُهلك، فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم، ووثقوا بنصر الله لهم، وقاتلوا الفرنج، فنصرهم الله عليهم فقتلوهم، ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودوابّ، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله.

ذكر مُلك صلاح الدين حلب

وفي هذه السنة سار صلاح الدين من عين تاب إلى حلب، فنزل عليها في المحرم أيضاً، في الميدان الأخر، وأقام به عدة أيام، ثم انتقل إلى جبل جَوْشَن فنزل

---

(١) تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٥.

(٢) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٣) في الأوربية: «شديد».

بأعلاه، وأظهر أنه يريد [أن] يبني مساكن له ولأصحابه وعساكره، وأقام عليها أيّاماً والقتال بين العسكرين كل يوم.

وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، ومعه العسكر النُّوري، وهم مُجِدّون في القتال، فلما رأى كثرة الخرج، كأنه شحّ بالمال، فحضر يوماً عنده بعض أجناده، وطلبوا منه شيئاً، فاعتذر بقلّة المال عنده، فقال له بعضهم: من يريد [أن] يحفظ مثل حلب يخرج الأموال، ولو باع حليّ نسائه؛ فمال حينئذٍ إلى تسليم حلب وأخذ العوض منها، وأرسل مع الأمير طُمان الياروقيّ، وكان يميل إلى صلاح الدين وهواه معه، فلهذا أرسله فقرّر قاعدة الصُّلح على أن يُسلم عماد الدين حلب إلى صلاح الدين ويأخذ عوضها سِنجار، ونصيبين، والخابور، والرّقّة، وسروج، وجرت اليمين على ذلك وباعها بأَوْكَس الأثمان، أعطى حصناً مثل حلب، وأخذ عَوضها قُرًى ومزارع، فنزل عنها ثامن عشر صفر، وتسلّمها صلاح الدين، فعجب الناس كلهم من ذلك، وقبحوا ما أتى، حتى إن بعض عامة حلب أحضر أُجانةً وماء وناداه: أنت لا يصلح لك الملك، وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب؛ وأسمعوه المكروه.

واستقرّ مُلك صلاح الدين بملكها، وكان مزلزلاً، فثبت قدمه بتسليمها وكان على شفا جرفٍ هارٍ، وإذا أراد الله أمراً فلا مَرَدّ له.

وسار عماد الدين إلى البلاد التي أُعطيها عوضاً عن حلب فتسلّمها، وأخذ صلاح الدين حلب، واستقرّ الحال بينهما: إن عماد الدين يحضر في خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره، إذا استدعاه لا يحتجّ[1] بحجّة.

ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزنكي، قاضي دمشق، مدح صلاح الدين بقصيدة منها:

وفَتحُكُم حلَباً بالسّيفِ في صَفَرٍ ... مُبشّرٌ بفُتوح القُدس في رَجَبِ

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى[2].

---

(١) في الأوربية: «يحتاج».

(٢) النوادر السلطانية ٥٩ ـ ٦٠، مفرّج الكروب ٢/ ١٤١ ـ ١٤٧، زبدة الحلب ٣/ ٦٣ ـ ٧٢، تاريخ مختصر الدول ٢١٩، تاريخ الزمان ٢٠٠ ـ ٢٠١، الأعلاق الخطيرة ٢/ ٧١ و٢٠٣ و٣/ ق ١/ ١٣٤ =

ومما كتبه القاضي الفاضل في المعنى عن صلاح الدين: «فأعطيناه عن حلب كذا وكذا، وهو صَرف على الحقيقة أخذنا فيه الدنانير وأعطيناه الدراهم، ونزلنا عن القُرى، وأحرزنا العواصم».

وكتب أيضاً: «أعطيناه ما لم يخرج عن اليد، يعني أنه متى شاء أخذه لعدم حصانته».

وكان في جُملة من قُتل على حلب تاج الملوك بوري[1]، أخو صلاح الدين الأصغر، وكان فارساً شجاعاً، كريماً حليماً، جامعاً لخصال الخير، ومحاسن الأخلاق، طُعن في رُكبته فانفكّت، فمات منها بعد أن استقرّ الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين، فلما استقر أمر الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده، وقال له: هذه حلب قد أخذناها، وهي لك؛ فقال: ذلك لو كان وأنا حيّ. ووالله لقد أخذتها غاليةً حيث تفقد مثلي. فبكى صلاح الدين وأبكى.

ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين، وقد عمل له دعوة احتفل فيها، فبينما هم في سرور إذ جاء إنسان فأسرّ إلى صلاح الدين بموت أخيه، فلم يُظهر هلعاً، ولا جزعاً، وأمر بتجهيزه سراً، ولم يعلم عماد الدين ومن معه في الدعوة، واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكّر ما هم فيه، وكان هذا من الصبر الجميل.

ذكر فتح صلاح الدين حارم

لما ملك صلاح الدين حلب[2] كان بقلعة حارم، وهي من أعمال حلب، بعض المماليك النورية، واسمه سَرْخَك، وولاّه عليها الملك الصالح (عماد الدين)[3]،

= و١٨٠ ـ ١٨١، مرآة الزمان ج ٨ ق ٣٧٦/١، مضمار الحقائق ١٤٤ و١٤٦ ـ ١٥١، المختصر في أخبار البشر ٦٦/٣، الدر المطلوب ٧٥ ـ ٧٦، نهاية الأرب ٣٨٤/٢٨ ـ ٣٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٩ هـ) ص ٥١، العبر ٢٣٧/٤، تاريخ ابن الوردي ٩٣/٢، البداية والنهاية ٣١٣/١٢ ـ ٣١٤، تاريخ ابن خلدون ٣٠١/٥ ـ ٣٠٢، شفاء القلوب ١٠٥ ـ ١٠٨، النجوم الزاهرة ٩٥/٦، تاريخ ابن سباط ١٦٥/١ ـ ١٦٦.

(١) انظر عن (تاج الملوك بوري) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٧٩ هـ).

(٢) في الباريسية: «حارم» وهو وهم.

(٣) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

فامتنع من تسليمها إلى صلاح الدين، فراسله صلاح الدين في التسليم، وقال له: اطلب من الإقطاع ما أردت؛ ووعده الإحسان، فاشتطّ في الطلب، وتردّدت الرسل بينهما[1]، فراسل الفرنج ليحتمي بهم، فسمع من معه من الأجناد، أنه يراسل الفرنج، فخافوا أن يسلمها إليهم، فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه، وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والإنعام، فأجابهم إلى ما طلبوا، وسلّموا إليه الحصن فرتّب به دَزْداراً بعض خواصّه.

وأما باقي قلاع حلب، فإن صلاح الدين أقرّ عين تاب بيد صاحبها، كما تقدم، وأقطع تل خالد لأمير يقال له داروم الياروقيّ، وهو صاحب تلّ باشر.

وأما قلعة إعزاز، فإن عماد الدين إسماعيل كان قد خرّبها، فأقطعها صلاح الدين لأمير يقال له دلدرم سليمان بن جَندر، فعمرها. وأقام صلاح الدين بحلب إلى أن فرغ من تقرير قواعدها وأحوالها وديوانها، وأقطع أعماها، وأرسل منها[2] فجمع العساكر من جميع بلاده[3].

ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، قبض عز الدين مسعود، صاحب الموصل[4]، على نائبه مجاهد الدين قايماز، وكان إليه الحكم في جميع البلاد، واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة[5] لنفسه، ولم ينظر في مضرّة صاحبه.

وكان الذي أشار بذلك عز الدين محمود زلفندار[6]، وشرف الدين أحمد بن أبي

---

(١) في الأوربية: «بينهم».

(٢) في (أ): «إليها».

(٣) مفرّج الكروب ٢/ ١٤١ ـ ١٤٧، النوادر السلطانية ٥٩ ـ ٦٠، تاريخ الزمان ٢٠٠ ـ ٢٠١، تاريخ مختصر الدول ٢١٩، زبدة الحلب ٣/ ٦٣ ـ ٧٢، مضمار الحقائق ٣٦ ـ ١٥٤، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٦، العبر ٤/ ٢٣٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٣، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٣ ـ ٣١٤، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٠١ ـ ٣٠٢، الدر المطلوب ٧٥ ـ ٧٦، شفاء القلوب ١٠٥ ـ ١٠٨، الأعلاق الخطيرة ٢/ ٧١ و٢٠٣ وج ٣ ق ١/ ١٣٤ و١٨٠ ـ ١٨١، الأنس الجليل ١/ ٢٩٣، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٦.

(٤) في (ب): «صاحب العراق».

(٥) في (ب): «في مصلحة صاحبه».

(٦) في (أ): «زلف اندار».

الخير[1] الذي كان أبوه صاحب الغرّاف، وهما من أكابر الأمراء، فلما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوّة مجاهد الدين، فأظهر أنه مريض، وانقطع عن الركوب عدة أيام، فدخل إليه مجاهد الدين وحده، وكان خصيّاً لا يمتنع من الدخول على النساء، فلما دخل عليه قبض عليه، وركب لوقته إلى القلعة، فاحتوى على الأموال التي لمجاهد الدين وخزائنه، وولّى زلفندار قلعة الموصل بعد مجاهد الدين، وجعل ابن صاحب الغرّاف أمير حاجب وحكّمهما في دولته.

وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذٍ إربل وأعمالها، ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين علي، وهو صبي صغير ليس له من الحكم شيء والحكم والعسكر إلى مجاهد الدين، وتحت حكمه أيضاً جزيرة ابن عمر، وهي لمعزّ الدين سَنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود، وهو أيضاً صبيّ، والحكم والنواب والعسكر لمجاهد الدين، وبيده أيضاً شَهْرَزُور وأعمالها، ونوابه فيها، ودَقُوها، ونائبه فيها، وقلعة عُقْر الحُمَيْدِيّة، ونائبه فيها، ولم يبق لعز الدين مسعود بعد أن أخذ صلاح الدين [البلاد] الجزرية سوى الموصل وقلعتها بيد مجاهد الدين، وهو على الحقيقة الملك واسمه لعز الدين، فلما قبض عليه امتنع صاحب إربل من طاعة عز الدين، واستبدّ، وكذلك أيضاً صاحب جزيرة ابن عمر، وأرسل الخليفة إلى دقوقا فحصرها وأخذها، ولم يحصل لعز الدين مسعود غير شهرزور والعُقر، وصارت إربل والجزيرة أضرّ شيء على صاحب الموصل، وأرسل صاحبها إلى صلاح الدين بالطاعة له، والكون في خدمته.

وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أرسل صدر الدين شيخ الشيوخ، ومعه بشير الخادم الخاص، إلى صلاح الدين في الصلح مع عز الدين، صاحب الموصل، وسيّر عز الدين معه القاضي محيي الدين أبا حامد بن الشّهرزوريّ في المعنى، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك وقال: ليس لكم مع الجزيرة وإربل حديث؛ فامتنع محيي الدين عن ذلك وقال: هما لنا؛ فلم يجب صلاح الدين إلى الصلح إلا بأن تكون إربل والجزيرة معه، فلم يتم أمره، وقوي طمع صلاح الدين في الموصل بقبض مجاهد الدين، فلما رأى صاحب الموصل الضرر بقبض مجاهد الدين قبض على شرف الدين

(١) في الباريسية: «الجبر».

أحمد بن صاحب الغرّاف[1] وزلفندار، عقوبة لهما، ثم أخرج مجاهد الدين، على ما نذكره إن شاء الله[2].

ذكر غزو بَيْسان

لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وهو صبيّ، وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج[3]، وكان أكبر الأمراء الأسدية، وسار إلى دمشق، وتجهّز للغزو، ومعه عساكر الشام والجزيرة، وديار بكر، وسار إلى بلد الفرنج، فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من السنة، فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فقصد بَيسان فأحرقها وخرّبها، وأغار على ما هناك، فاجتمع الفرنج، وجاءوا إلى قبالته، فحين رأوا كثرة عساكره لم يقدموا عليه، فأقام عليهم، وقد استندوا إلى جبل هناك، وخندقوا عليهم، فأحاط بهم، وعساكر الإسلام ترميهم بالسهام، وتناوشهم القتال، فلم يخرجوا وأقاموا كذلك خمسة أيام، وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر، لعلّ الفرنج يطمعون ويخرجون، فيستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضاً، فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم في غير السلامة.

وأغار المسلمون على تلك الأعمال يميناً وشمالاً، ووصلوا فيها إلى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول إليه والإقدام عليه، فلما كثُرت الغنائم معهم رأوا العود إلى بلادهم بما غنموا مع الظَّفَر أولى، فعادوا إلى بلادهم على عزم الغزو[4].

ذكر غزو الكرك ومُلك العادل حلب

لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان تجهزوا لغزو الكَرَك، فسار إليه

---

(١) في (ب): «صاحب العراق».

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٩ هـ) ص ٤٧.

(٣) في (ب): «يازكوخ».

(٤) في (أ): «عزم العود». والخبر في مفرّج الكروب ٢/ ١٤٥ ـ ١٤٧، والنوادر السلطانية ٦٠، وزبدة الحلب ٣/ ٧١، ومضمار الحقائق ١٥٠، وتاريخ مختصر الدول ٢١٩، وتاريخ الزمان ٢٠٠ ـ ٢٠١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٦، والدر المطلوب ٧٥ ـ ٧٦، والعبر ٤/ ٢٣٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٣، والبداية والنهاية ١٢/ ٣١٣ ـ ٣١٤، والأعلاق الخطيرة ٢/ ٧١ و٢٠٣ وج ٣ ق ١/ ١٣٤ و١٨٠ ـ ١٨١، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٠١ ـ ٣٠٢، والسلوك ج ١ ق ١/ ٨١، وشفاء القلوب ١٠٧ ـ ١٠٨، والأنس الجليل ١/ ٢٩٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٦٦.

في العساكر، وكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب، وهو نائبه بمصر، يأمره بالخروج بجميع العساكر إلى الكَرَك. وكان العادل قد أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يخرج معه بأهله وماله، فوصل صلاح الدين إلى الكَرَك في رجب، ووافاه أخوه العادل في العسكر المصري، وكثُر جَمْعه، وتمكّن من حصره، [وصعِد][1] المسلمون إلى رَبضه ومَلَكه، وحصر الحصن من الربض، وتحكم عليه في القتال، ونصب عليه سبعة[2] مجانيق لا تزال ترمي بالحجارة ليلاً ونهاراً.

وكان صلاح الدين يظنُّ أن الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك، وأنهم يبذلون جهدهم في رده عنهم، فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع، فرحل عنه منتصف شعبان، وسيّر[3] تقي الدين ابن أخيه إلى مصر نائباً عنه ليتولى ما كان أخوه العادل يتولاّه، واستصحب أخاه العادل معه إلى دمشق، وأعطاه مدينة حلب وقلعتها وأعمالها ومدينة مَنبج وما يتعلق بها، وسيّره إليها في شهر رمضان من السنة، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق[4].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة فُتح الرباط الذي بنته أمّ الخلفية بالمأمونيّة[5].

[الوفيات]

وفيها، في ذي الحجة، توفي مكرم بن بختيار أبو الخير الزّاهد ببغداد. روى الحديث، وكان كثير البكاء.

وفي جُمادى الآخرة توفي محمد بن بختيار بن عبد الله أبو عبد المولد الشاعر ويُعرف بالأبله، فمن جملة شِعره:

---

(١) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٢) في الأوربية: «سبع».

(٣) في (ب): «وكان قد سيّر».

(٤) المصادر السابقة، والبرق الشامي ١٥٣/٥، وسنا البرق الشامي ١٥١/٢، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٩ هـ) ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٥) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٩ هـ) ص ٤٨.

أراقَ دَمْعي لا بل أراق دَمي ظُلماً بظلمٍ من ريقِه الشَّبِمِ
ذُو قامَةٍ كالقضيبِ ناضِرَةٍ وناظِرٍ من سَقامِه سَقَمي
حصلتُ من وعده على أصدقِ الـ ـوَعْدِ ومن وَصلِهِ على التّهَمِ

٥٨٠

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة

ذكر إطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهزام العجم

في هذه السنة، في المحرم، أطلق أتابك عز الدين، صاحب الموصل، مجاهد الدين قايماز من الحبس بشفاعة شمس الدين البهلوان، صاحب هَمَذان وبلاد الجبل، وسيّره إلى البهلوان وأخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين، فسار إلى قزل أوّلاً، وهو صاحب أَذَرْبيجان، فلم يمكنه من المُضِيّ إلى البهلوان، وقال: ما تختاره أنا أفعله؛ وجهّز معه عسكراً كثيراً نحو ثلاثة آلاف فارس، وساروا نحو إربل ليحصروها، فلما قاربوها أفسدوا[1] في البلاد وخرّبوها، ونهبوا وسبوا، وأخذوا النساء قهراً، ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم، فسار إليهم زين الدين يوسف، صاحب إربل، في عسكره، فلقيهم وهم متفرّقون في القرى ينهبون ويحرقون، فانتهز الفرصة فيهم بتفرّقهم، وألقى بنفسه وعسكره على أول من لقيه منهم، فهزمهم، وتمت الهزيمة على الجميع، وغنم الإربليون أموالهم ودوابهم وسلاحهم، وعاد العجم إلى بلادهم منهزمين، وعاد صاحب إربل إلى بلده مظفراً غانماً، وعاد مجاهد الدين إلى الموصل، فكان يحكي: إنني ما زلتُ أنتظر العقوبة من الله تعالى على سوء أفعال العجم، فإنني رأيت منهم ما لم أكن أظنّه يفعله مسلم بمسلم، وكنتُ أنهاهم فلا يسمعون، حتى كان من الهزيمة ما كان.

ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب

في هذه السنة سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى بلاد الأندلس، وجاز البحر إليها في جمْع عظيم من عساكر المغرب، فإنه جمع وحشد الفارس والراجل؛ فلما عبر الخليج قَصد غربي البلاد، فحصر مدينة شَنْتَرين، وهي للفرنج، شهراً،

---

(١) في الأوربية: «فسدوا».

فأصابه بها مرض فمات منه في ربيع الأول، وحُمل في تابوت إلى مدينة إشبِيلية من الأندلس.

وكانت مدة مُلكه اثنتين وعشرين سنة وشهراً، ومات عن غير وصيّة بالملك لأحدٍ من أولاده، فاتفق رأي قوّاد الموحدين وأولاد عبد المؤمن [على تمليك ولده أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن][1] فملكوه من الوقت الذي مات فيه أبوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو، فقام في ذلك أحسن قيام، وأقام راية الجهاد، وأحسن السيرة في الناس. وكان ديناً مقيماً للحدود في الخاص والعام، فاستقامت له الدولة وانقادت إليه بأسرها مع سعة أقطارها، ورتّب ثغور الأندلس وشحنها بالرجال، ورتّب المقاتلة في سائر بلادها، وأصلح أحوالها وعاد إلى مرّاكش.

وكان أبوه يوسف حسن السيرة، وكان طريقه ألْين من طريق أبيه مع الناس، يحبّ العلماء ويقرّبهم ويشاورهم، وهم أهل خدمته وخاصته. وأحبه الناس ومالوا إليه، وأطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه، وسلك في جباية الأموال ما كان أبوه يأخذه، ولم يتعدّه إلى غيره، واستقامت له البلاد بحسن فعله مع أهلها، ولم يزل كذلك إلى أن توفي، رحمه الله تعالى[2].

ذكر غزو صلاح الدين الكَرَك

في هذه السنة، في ربيع الآخر، سار صلاح الدين من دمشق يريد الغزو، وجمع عساكره، فأتته من كل ناحية، وممن أتاه نور الدين محمد بن قُرا أرسلان، صاحب الحصن. وكتب إلى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكَرَك، فنازل الكَرَك وحصره، وضيّق على من به، وأمر بنصب المجانيق على ربَضه، واشتدّ القتال، فملك المسلمون الربض، وبقي الحصن، وهو والرَّبَض على سطح جبل واحد، إلا أن بينهما خندقاً

---

(١) ما بين الحاصرتين من الباريسية.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ٢٣٦ ـ ٢٦٠، مضمار الحقائق ٢٠١، وفيات الأعيان ٧/ ١٣٠ ـ ١٣٨، رقم ٨٤٥، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٧، العبر ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤١، دول الإسلام ٢/ ٩١، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٣، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٥، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٨٩ ـ ١٠٣ رقم ٤٦، مرآة الجنان ٣/ ٤١٧ ـ ٤١٨، مآثر الإنافة ٢/ ٧٢، صبح الأعشى ٥/ ١٩٢، السلوك ج ١ ق ١/ ٨٦، العسجد المسبوك ٢/ ١٩٣، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٧، شذرات الذهب ٤/ ٢٦٤.

عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً، فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه، فلم يقدر أحد على الدُّنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهام من الجرخ والقوس والأحجار من المجانيق، فأمر أن يُبْنى بالأخشاب واللّبن ما يمكن الرجال يمشون تحته إلى الخندق ولا يصل إليهم شيء من السهام والأحجار، ففعل ذلك، فصاروا يمشون تحت السقائف ويلقون في الخندق ما يطمّه، ومجانيق المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلاً ونهاراً.

وأرسل من فيه من الفرنج إلى ملكهم وفرسانهم يستمدّونهم ويعرّفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن، فاجتمعت الفرنج عن آخرها، وساروا إلى نجدتهم عَجِلين، فلما بلغ الخبر بمسيرهم إلى صلاح الدين رحل عن الكَرَك إلى طريقهم ليلقاهم ويصافقهم، ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكَرَك، فقرب منهم وخيّم ونزل، ولم يمكنه الدُّنُوّ منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسلك إليهم وضيقه، فأقام أياماً ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكّن منهم، فلم يبرحوا منه خوفاً على نفوسهم، فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ، وجعل بإزائهم من يُعلمه بمسيرهم، فساروا ليلاً إلى الكَرَك، فلما علم صلاح الدين ذلك علم أنه لا يتمكّن حينئذٍ ولا يبلغ غرضه، فسار إلى مدينة نابلس، ونهب كل ما على طريقه من البلاد، فلما وصل إلى نابلس أحرقها وخربها ونهبها، وقتل فيها وأسر وسبَى فأكثر، وسار عنها إلى سَبَسْطِيَةَ، وبها مشهد زكريّاء، عليه السلام، وبها كنيسة، وبها جماعة أسرى من المسلمين، فاستنقذهم، ورحل إلى جِينِين فنهبها وخرّبها، وعاد إلى دمشق ونهب ما على طريقه وخرّبه، وبثّ السرايا في طريقه يميناً وشمالاً يغنمون ويخرّبون، ووصل إلى دمشق[1].

ذكر مُلك الملثّمين بجاية وعودها إلى أولاد عبد المؤمن

في هذه السنة، في شعبان، خرج علي بن إسحاق المعروف بابن غانية وهو من أعيان الملثّمين الذين كانوا ملوك المغرب، وهو حينئذٍ صاحب جزيرة ميورقة، إلى

---

(١) النوادر السلطانية ٦٣ ـ ٦٦ ـ ٦٧، زبدة الحلب ٣/ ٧٤ و٧٨ ـ ٧٩، مفرّج الكروب ٢/ ١٥٧ ـ ١٥٨، تاريخ الزمان ٢٠٢، الأعلاق الخطيرة ٢/ ٧١ ـ ٧٢، المغرب ١٥١، مضمار الحقائق ١٨٨ ـ ١٩٠، الدر المطلوب ٧٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٨، العبر ٤/ ٢٣٩، دول الإسلام ٢/ ٩١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٠ هـ) ص ٥٩ ـ ٦٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٤، مرآة الجنان ٤/ ٤١٧، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٥، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٠٢ العسجد المسبوك ٢/ ١٩٠، شفاء القلوب ١١٤، السلوك ج ١ ق ١/ ٨٣ ـ ٨٤، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

بجاية فملكها، وسبب ذلك أنه لما سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر أسطوله فكان عشرين قطعة وسار في جموعه فأرْسَى في ساحل بجاية، وخرجت خيله ورجاله من الشواني فكانوا نحو مائتي فارس من الملثّمين وأربعة آلاف راجل، فدخل مدينة بجاية بغير قتال لأنه اتفق أن واليها سار عنها قبل ذلك بأيام إلى مرّاكش ولم يترك فيها جيشاً ولا ممانعاً لعدم عدو يحفظها منه، فجاء الملثّم ولم يكن في حسابهم أنه يحدث نفسه بذلك، فأرسى بها، ووافقه جماعة من بقايا دولة بني حماد وصاروا معه، فكثُر جَمْعه بهم وقويت نفسه، فسمع خبره والي بجاية فعاد من طريقه ومعه من الموحدين ثلاثمائة فارس، فجمع من العرب والقبائل الذين في تلك الجهات نحو ألف فارس، فسمع بهم الملثّم وبقربهم منه، فخرج إليهم وقد صار معه قدر ألف فارس، وتواقفوا ساعة فانضاف جميع الجموع التي كانت مع والي بجاية إلى الملثّم، فانهزم حينئذٍ والي بجاية ومن معه من الموحدين وساروا إلى مراكش، وعاد الملثم إلى بجاية فجمع جيشه وخرج إلى أعمال بجاية فأطاعه جميعها إلا قسنطينة الهوى فحصرها إلى أن جاء جيش من الموحّدين من مراكش في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة إلى بجاية في البرّ والبحر، وكان بها يحيى وعبد الله أخوا علي بن إسحاق الملثّم، فخرجا منها هاربين ولحِقا بأخيهما فرحل عن قُسَنْطِينة وسار إلى إفريقية.

وكان سبب إرسال الجيش من مرّاكش أن والي بجاية وصل إلى يعقوب بن يوسف صاحب المغرب وعرّفه ما جرى ببجاية واستيلاء الملثّمين عليها، وخوّفه عاقبة التواني، فجهز العساكر في البر عشرين ألف فارس، وجهّز الأسطول في البحر في خلقٍ كثير واستعادوها[1].

ذكر وفاة صاحب ماردين ومُلك ولده

في هذه السنة مات قُطْب الدين إيلغازي بن نجم الدين بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وملك بعده[2] ابنه حسام الدين بولق أرسلان وهو طفل، وقام بتربيته وتدبير مملكته نظام الدين البُقش مملوك أبيه، وكان شاه أرمن صاحب خلاط خال قطب الدين فحكم في دولته، وهو رتّب البقش مع ولده، وكان

---

(١) نهاية الأرب ٢٤/ ٣٧١ ـ ٣٧٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٠ هـ) ص ٥٨.

(٢) في الأوربية: «بعد».

البقش ديناً خيّراً عادلاً، حسن السيرة، حليماً، فأحسن تربيته وتزوّج أمه، فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته لخبطٍ وهوج فيه، وكان لنظام الدين هذا مملوك اسمه لؤلؤ[1] قد تحكم في دولته وحكم فيها، فكان يحمل النظام على ما يفعله مع الولد، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن مات الولد وله أخ أصغر منه لَقَبُه قُطْب الدين، فرتّبه النظام في المُلك وليس له منه إلا الاسم، والحكم إلى النظام ولؤلؤ، فبقي كذلك إلى سنة إحدى وستمائة، فمرض النظام البقش فأتاه قُطْب الدين يعوده، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ وضربه قُطب الدين بسكّين معه فقتله، ثم دخل إلى النظام وبيده السكّين فقتله أيضاً، وخرج وحده ومعه غلام له، وألقى الرأسين إلى الأجناد، وكانوا كلّهم قد أنشأهم النظام ولؤلؤ، فأذعنوا له بالطاعة، فلما تمكن أخرج من أراد وترك من أراد واستولى على قلعة ماردين وأعمالها وقلعة البارعية وصور وهو إلى الآن حاكمٌ فيها حازمٌ في أفعاله[2].

ذكر عدّة حوادث

[الوَفَيَات]

في هذه السنة توفي صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن شيخ الشيوخ إسماعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعيد أحمد في شعبان، وكان قد سار في ديوان الخلافة رسولاً إلى صلاح الدين ومعه شهاب الدين بشيرٌ الخادم في معنى الصلح بينه وبين عزّ الدين صاحب الموصل، فوصلا إلى دمشق وصلاح الدين يحصر الكَرَك، فأقاما إلى أن عاد فلم يستقرّ في الصلح أمرٌ، ومرضا وطلبا العودة إلى العراق، فأشار عليهما صلاح الدين بالمُقام إلى أن يصطلحا، فلم يفعلا وسارا في الحَرِّ فمات بشير بالسّخنة[3].

ومات صدر الدين بالرحبة، ودُفن بمشهد البوق، وكان واحد زمانه، قد جمع

---

(١) في الأوربية: «لؤلؤاً».

(٢) مرآة الزمان ج ٨ ق ٣٨٣/١، الروضتين ١٦٠/٢، (طبعة وادي النيل)، تاريخ الزمان ٢٠٢، تاريخ مختصر الدول ٢١٩، تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ٦٢٠/٤، وفيات الأعيان ١٩١/١ و٢٦٥/٢ و٤٥١، الدر المطلوب ٧٨، المختصر ٦٨/٣، العبر ٢٣٩/٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٠ هـ) ص ٦١، تاريخ ابن الوردي ٩٤/٢، الوافي بالوفيات ٢٦/١٠ ـ ٢٧ رقم ٤٤٦٩، السلوك ج ١ ق ٨٦/١، العسجد المسبوك ١٩١/٢، النجوم الزاهرة ٩٧/٦، تاريخ ابن سباط ١٦٨/١، شذرات الذهب ٢٦٨/٤.

(٣) في طبعة صادر ٥٠٩/١١، «السحنة»، والتصحيح من المصادر.

بين رياسة الدين والدنيا، وكان ملجأ لكل خائف، صالحاً، كريماً، حليماً، وله مناقب كثيرة، ولم يستعملَ في مرضه هذا دواء توكّلاً على الله تعالى[1].

وفيها توفي عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخُجَنديّ الفقيه الشافعيّ، رئيس أصفهان، وكان موته بباب همذان وقد عاد من الحَجّ، وله شعر فمنه:

يا سقَى الله الحِمى من مَربعِ ... بالحِمَى دارٌ سَقاها مَدمَعي
هل إلى وادي الغَضَى من مَرجعِ ... لَيتَ شِعري والأماني ضَلّةٌ
ما على عَلوةَ لو لم تَسْمَعِ ... أذِنَتْ عَلوَةُ للواشي بِنا
أو عَفَتْ عني فَما قلبي مَعي ... أو تحَرّتْ رَشَداً فيما وَشَى

رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه.

---

(١) مضمار الحقائق ١٦٢ و٢٠٠، المختصر في أخبار البشر ٦٨/٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٠ هـ) ص ٦٠.